الأكاديمية العربية الدولية
Arab International Academy

الأكاديمية العربية الدولية

المقررات الجامعية

www.aiacademy.info | care@aiacademy.info

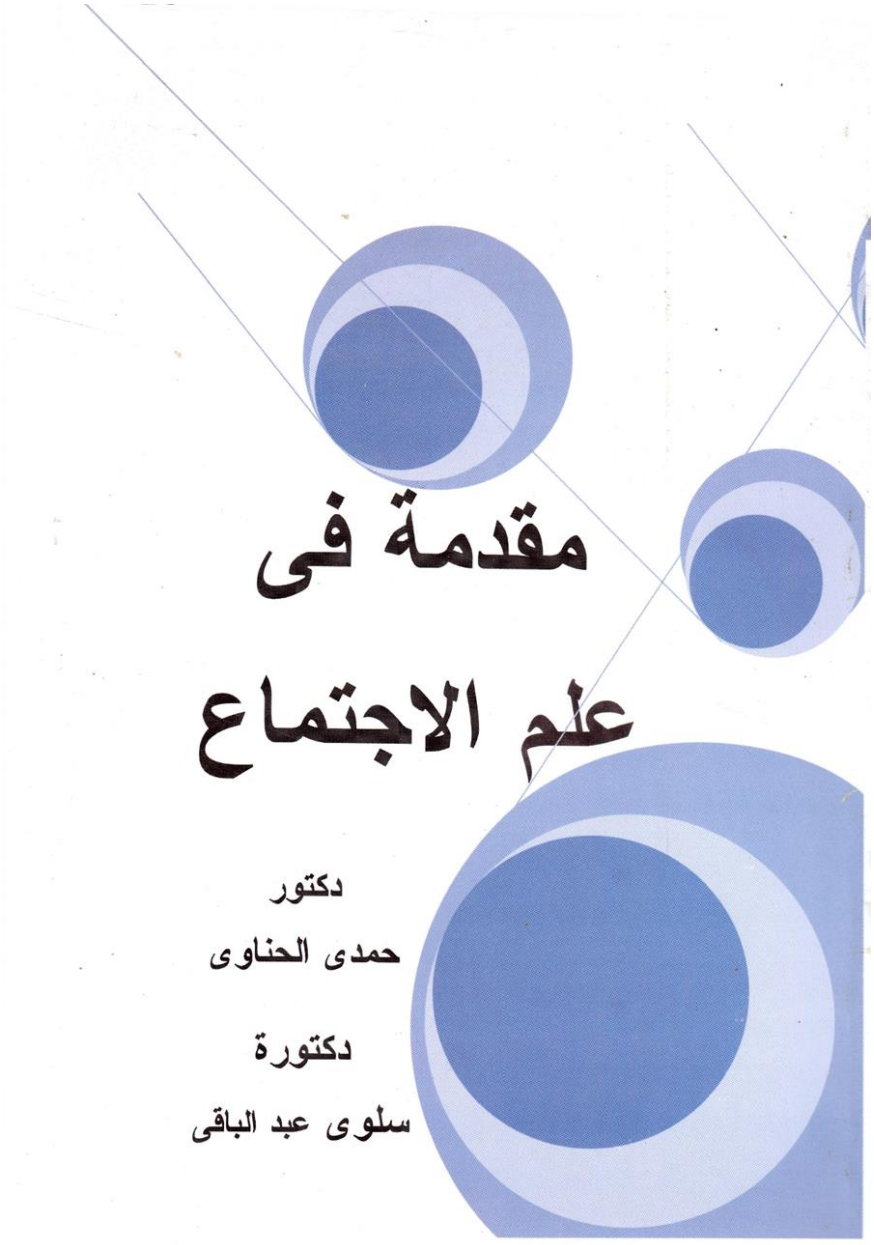

مقدمة فى
علم الاجتماع

دكتور

حمدى الحناوى

دكتورة

سلوى عبد الباقى

مقدمة فى
علم الاجتماع

دكتور حمدى الحناوى و دكتورة سلوى عبد الباقى

الطبعة الأولى: 2013

مكتبة الأنجلو المصرية
165 شارع محمد فريد،
ت: 23914337 (02) القاهرة

رقم الإيداع بدار الكتب: 2013/3648
الترقيم الدولى: 978-977-90-0383-2

قائمة المحتويات

ص

1- ماهو علم الاجتماع؟ 1
1-1 ابن خلدون 1
1-2 علم الاجتماع وتغيير الواقع 4
1-3 أصول علم الاجتماع 8
1-4 علم الاجتماع كعلم 11
1-5 التغير وعلم الاجتماع 13
2- النظرية الاجتماعية 16
2-1 علم الاجتماع الكلاسيكى 18
2-2 أصوات ومنظورات أحدث 22
3- مناهج البحث الاجتماعى 27
3-1 القضايا الأساسية 27
3-2 نوعان من علم الاجتماع 29
3-3 توجهات أخرى 33
3-4 المفاهيم والمتغيرات 35
3-5 العلاقات بين المتغيرات 37
3-6 اختيار العينة 40
3-7 أدوات البحث الاجتماعى 44
3-8 هل يمكن الاعتماد على الإنترنت؟ 51
3-9 الاتجاه الأنثوى 53
3-10 بين النظرية وطريقة البحث 55
3-11 أخلاقيات البحث 56
4- أنماط المجتمعات 58
4-1 الأنماط التاريخية للمجتمعات 58

2-4 تصنيف المجتمعات المعاصرة 67
3-4 نمط المجتمع المصرى 74
3-4 التطور الاجتماعى 77
5- الثقافة 93
1-5 مفهوم الثقافة 93
2-5 عناصر الثقافة 95
3-5 التغير والتنوع الثقافى 101
4-5 أنواع من الثقافات 110
5-5 دراسة الثقافة 120
6- الجماعات 124
1-6 الجماعة 124
2-6 المنظمة 130
3-6 البيروقراطية 131
4-6 مجتمع الشبكة 135
7- علم الاجتماع الجزئى 139
1-7 صناعة الحقيقة الاجتماعية 139
2-7 التنشئة الاجتماعية 143
3-7 الفرد والمجتمع والأجيال 150
4-7 صناعة المواقف 153
5-7 الهوية والجسد والعواطف 157
المراجع 164

تقديم

تتيح لنا العلوم الإنسانية والاجتماعية فهم الإنسان وعلاقته بالآخر وعلاقته بالمجتمع. ويتيح علم الاجتماع على وجه الخصوص فهم الحياة التى نعيشها وفهم عمليات التغير الاجتماعى. وقد ظهر علم الاجتماع فى أوربا فى فترة التغير العاصف الذى صاحب الثورة الصناعية وأعقب الثورة الفرنسية. ومع أن هذه العاصفة من التغير تركت أثرها على الإنسانية كلها، إلا أن التغير فى إطارها ظل نسبيا، مثل تغير اجتماعى. ونسبية التطور تعنى أنه يرتبط بظروف المجتمع الذى يحدث فيه.

بهذه النسبية يختلف التغير فى كل مجتمع عما فى غيره من المجتمعات فى نفس الفترة الزمنية، ويختلف فى نفس المجتمع من فترة زمنية لأخرى. وحين يحدث تغير فى مجتمع بتأثير التغير فى مجتمع، يظل هناك اختلاف بين هذا وذاك، وتظل نسبية التغير قاعدة ثابتة. ومن هذه الزاوية كان علم الاجتماع فى نشأته علما أوربيا، وكان ما يقترحه الاجتماعيون من قوانين عامة يقولون أنها تنطبق على كل المجتمعات، مجرد مقترحات أو فروض يلزم اختبار صحتها ولا تؤخذ مسلما بها.

هذا يفرض على الباحثين دراسة مجتمعاتهم، لأن القوانين العامة إن وجدت فسوف تتعلق بالسمات المشتركة أو بالتطور التاريخى. ولا نتوقع أن توجد كثير من السمات المشتركة بين مجتمعنا وبين المجتمعات الأوربية على سبيل المثال. وهكذا يتعين علينا ونحن ندرس علم الاجتماع أن نتنبه إلى تلك النسبية، وأن نعرف أن ما استنتجته البحوث الاجتماعية فى بلاد أخرى قد لا ينطبق على مجتمعنا. والأكثر فائدة لنا أن نعرف كيف نستخدم مناهج البحث

بوعى للتعرف على مجتمعنا.

سوف نرى حتى فى هذه المسألة، أن مناهج البحث فى علم الاجتماع كانت أيضا محل خلاف، وأن ما ينطبق على العلوم الطبيعية لا ينطبق بالضرورة على علم الاجتماع. ذلك لأن المجتمع لا تجرى دراسته فى أنابيب اختبار فى المعامل، وإذا أجريت تجربة فلا يمكن التحكم فى كل المتغيرات. وفى ضوء هذا كان علينا أن ننحو نحوا آخر فى تقديم علم الاجتماع. ولهذا الغرض نعرض فى هذا الكتاب تاريخ هذا العلم وظروف نشأته، وزوايا النظر إلى المجتمع عند دراسته ومنهج البحث.

بعد ذلك نعرض ما يعتبر قوانين عامة تتعلق بحركة المجتمعات وتطورها، وكل هذا فى صورة رؤية عامة للموضوعات التى يدرسها علم الاجتماع، وما يمكن دراسته فى مجتمعنا. وما قد يعرض من نتائج لدراسات جرت فى مجتمعات أخرى إنما يعرض للتعرف على أمثلة قد تفيد عند المقارنة. وقد مررنا بشكل سريع على ما يراه البعض تميزا أو سبقا تاريخيا كالقول بأن ابن خلدون هو مؤسس علم الاجتماع. ونرى أن هذا يقال من باب التفاخر، لا أكثر ولا أقل.

كان عندنا فى المجتمعات الإسلامية بالطبع فكر اجتماعى، وهذا لم يكن سبقا ولا تفردا، لكنه جزء من حضارة كاملة كان فيها أيضا فكر رياضى وفكر طبى وفكر فلسفى وغيره. أما العلم المنضبط فهو تطور حديث، يجب أن نعترف بأن السبق فيه كان لغيرنا. وهذا لا يقلل من إنجازاتنا التاريخية. وقد كانت دون شكل أساسا بنى عليه الفكر الحديث واستفاد به مثلما استفاد بكل الفكر القديم، سواء ما نشأ منه عندنا أو عند غيرنا. وهذا أول ما يجب أن نعرفه فى علم الاجتماع.

لقد تميز المجتمع الإنسانى عن الجماعات الحيوانية بأنه مجتمع له ثقافة وله تاريخ، وأنه يحفظ ثقافته وتاريخه وينقل ذلك من جيل لجيل. وهذا قانون من قوانين علم الاجتماع، ويجب أن نكون على يقين بأن الفكر الإنسانى لا يفنى، بل يظل محفوظا فى ذاكرة الأجيال، ويظل له أثر فى الثقافة الإنسانية. ويمكننا بتحليل ثقافتنا أن نعثر على أثر الثقافات القديمة، مثلما نعثر على وثائق بالغة القدم متمثلة فى الحفريات. وفى الوقت ذاته كان كل فكر إنسانى فى حينه تعبيرا عن تطور اجتماعى من نوع ما.

هذا يعنى أن ننظر إلى الفكر الإنسانى كله باحترام، سواء فى ذلك الفكر القديم أو الحديث. وبهذا يكون فى وسعنا أن نحافظ على التراث كوثائق تاريخية، لها أهميتها ولو كان بعض التراث مما يعتبر بمعيار العلم الحديث نوعا من الخرافة. وقد تطورت المجتمعات البشرية، ولم يكن تطورها متساويا، وسنجد الآن مجتمعات أكثر تقدما من غيرها من النواحى العلمية والتكنولوجية. وعلينا أن ندرس بموضوعية لماذا لم يحقق مجتمعنا نفس التقدم الذى حققته مجتمعات أخرى. وعلينا أن نكتشف كيف نواصل تقدمنا ونسد الفجوات بيننا وبين غيرنا.

هذا ما نراه الغرض الأساسى لدراسة علم الاجتماع. لهذا نستعرض فى هذا الكتاب مدى واسعا من الموضوعات، ونحاول أن نعرضها بأكبر قدر ممكن من البساطة, ونأمل أن يستثير هذا لدى القارئ فضولا يدفعه إلى التأمل، واكتشاف ما يحتاج إلى البحث فى مجتمعنا، وما أكثر ما يحتاج مجتمعنا إلى بحثه. لهذا أشرنا بسرعة إلى ما يسمى الاتجاه الأنثوى، فى منحنى لا يعبر عن محاولة فهم القضايا المتعلقة بالنساء، بل يحاول التعريف بمنطق هذا الاتجاه وهو يرى المجتمع من وجهة نظر أنثوية.

عرضنا أيضا أنماط المجتمعات، وأشرنا فى عجالة إلى نمط المجتمع المصرى كما نراه. والمؤكد أن غيرنا سيراه من زاوية أخرى أو بمنظار آخر، ونهدف هنا أيضا أن نستثير البحث فى هذا الموضوع. كذلك أفردنا فصلا للثقافة وعناصرها بما يشمل التعدد والتنوع الثقافى، وهذا موضوع حساس بدوره، حيث يسود فى مجتمعنا نهج وفكر إقصائى يبنى على فرض احتكار الحكمة. ويتصور أصحابه بذلك أنهم وحدهم على صواب، وأن كل الآخرين مخطئون.

كان لا بد هنا أن نعرض آخر ما رصده الباحثون الغربيون من تطور فى مجتمعاتهم، يمتد أثره إلى الدنيا نتيجة للاحتكاك والتفاعل بين المجتمعات. وفى هذا السياق عرضنا ما يسمى مجتمع الشبكة. وفى النهاية تناولنا علم الاجتماع الجزئى، وتضمن ذلك عرض موضوعات لم تكن مما اعتاد الاجتماعيون دراستها، ولم يتعرض لها الباحثون إلا حديثا. وفى هذا الإطار عرضنا موضوعات محددة هى الهوية وسوسولوجيا الجسد وسوسيولوجيا العواطف. وهنا نكتشف أنماط سلوكية تتعلق بتلك الأمور.

العرض هنا سريع كغيره، ويهدف فقط إلى التعرف على مزيد من موضوعات الفكر الاجتماعى. وفى النهاية، لا يمثل هذا الكتاب سوى مدخلا لإثارة التفكير فى ماهية علم الاجتماع. ونأمل أن يزول ما يحيط هذا العلم من غموض يجعل منه علما للخاصة، كما نأمل أن نتمكن مستقبلا من تقديم أجزاء أخرى من علم الاجتماع، تزيد الصورة وضوحا. ولعل هذا يفتح بابا لدراسة المجتمع المصرى من زوايا كان من المحرم النظر منها، ومناقشة موضوعات ظلت حتى اليوم مسكوتا عنها.

1

ما هو علم الاجتماع؟

تأسس علم الاجتماع الحديث فى القرن التاسع عشر، لكنه مثل كل العلوم الأخرى، كعلوم الإدارة والطب والهندسة والكيمياء والفلك والمالية العامة وغيرها، لم يبدأ من فراغ. يقرر كثير من الباحثين بأن ابن خلدون هو مؤسس علم الاجتماع (مثلا، حسن الساعاتى، 2003، الطبعة الخامسة)، ومعنى هذا أنه علم عمره الآن ستة قرون لا قرنان فقط. ومع ذلك فحين ننظر إلى التاريخ، سنجد أن الفكر الإنسانى تناول القضايا الاجتماعية، منذ نشأت المجتمعات والحضارة الإنسانية. وكان ذلك جزءا من الفكر الدينى قبل أن ينشأ فكر اجتماعى مستقل.

1-1 ابن خلدون

كتب ابن خلدون فى قضايا العمران والاجتماع البشرى، ووصف ذلك بأنه علم لم يسبقه أحد إلى الكتابة فيه (مقدمة ابن خلدون، 2002: 13-15). وسواء اعتبرناه مؤسس علم الاجتماع أو لم نعتبره كذلك، فيجب أن نعترف بقيمة ذلك المفكر المبدع. والمؤكد أن فكره الاجتماعى يمثل سابقة

نجد فيها جذورا لعلم الاجتماع كعلم مستقل، وسيجد فيه بعض الباحثين أساس ما يسمونه علم الاجتماع الإسلامى (صلاح الفوال، 2000). ولكن وجود جذور للعلوم الحديثة فيما كتبه مفكر معين لا يكفى لاعتباره مؤسس تلك العلوم.

سوف نجد فيما كتبه ابن خلدون بعض الفكر الاقتصادى والسياسى والإدراى، فهل بالقياس نعتبره مؤسس تلك العلوم؟ النقطة الأساسية هنا أن دراسة المجتمعات البشرية لا بد أن تتطرق إلى أنشطة الإنتاج والنظم السياسية والإدارية التى توجد فى تلك المجتمعات. ويصل المدافعون عن ابن خلدون كمؤسس لعلم الاجتماع، إلى حد القول بأن مقدمته حوت سبعة علوم، منها علم الاجتماع الاقتصادى وعلم الاجتماع السياسى وعلم الاجتماع الحضرى وعلم الاجتماع البدوى والريفى (حسن الساعاتى: الفصل الثانى). وهناك بالطبع جذور لموضوعات تلك العلوم فى المقدمة ولكن الأمر لا يزيد عن ذلك.

نستطيع إذن أن نتحدث عن ذلك المفكر الإسلامى، لا على سبيل القول بأن المسلمين كانوا سابقين لغيرهم فى بعض العلوم، ولا من قبيل التفاخر أو نفى النقص عن مجتمعاتنا التى تخلفت عن الحضارة الصناعية. وبصفة عامة، يجب أن يرقى حديثنا عن العلم ليكون حديثا عن علم عام، لا عن علم إسلامى فى مقابل علم آخر غير إسلامى. العلم لا وطن له، وهو فى النهاية منتج إنسانى استقل عن الدين. وفى دراسة الاجتماع، تختلف المجتمعات ولا بد من دراسة كل نوع منها، ومن هذه الزاوية مكن أن نسمى دراسة المجتمعات الإسلامية علم اجتماع إسلامى، مثلما يوجد علم اجتماع ريفى و حضرى وغير ذلك.

لن يكون علم الاجتماع الإسلامى إذن وصفا لعلم ينبع من الدين، بل وصف لمجتمعات ترك الدين الإسلامى أثره فى تكوينها وتطورها. ومن هذه الزاوية يمكن استخلاص فكر اجتماعى من الدين، وسيمكن استخلاص كثير من الفكر الاجتماعى من الأديان المختلفة لا من الدين الإسلامى وحده. وهذا ما انتهى إليه حتى الباحثون الذين تناولوا ما أسموه علم الاجتماع الإسلامى، فكانت مصادر الفكر الاجتماعى لديهم تشمل التوراة والإنجيل والقرآن. وبديهى أننا يمكن أن نستخلص فكرا اجتماعيا من الأدب ومن الفلسفة. وقد كان من المفكرين الاجتماعيين فلاسفة كالفارابى ومفكرون إسلاميون كالغزالى. وكان على نفس الدرب ابن رشد وابن سينا وغيرهم (صلاح الفوال، 2002).

على أى حال، لم يتوقف الجدل حتى الآن حول ابن خلدون، وربما لن يتوقف قريبا. وما زالت تغذى الجدل حجج وفروض جديدة، ففى دراسة حديثة قال البعض أن فكره منقول عن إخوان الصفا، ودارت حول هذا القول معركة عنيفة (محمود إسماعيل، 2000). ولن ندخل فى مثل تلك التفاصيل، فقد آن أن نخرج من سياق الذود عن أصالة الفكر العربى والقول بأنه أصل الحضارة الحديثة. فهذه الحضارة قد استفادت من كل الحضارات التى سبقتها، بما فى ذلك الحضارة المصرية. ولا ينكر أحد أننا أصحاب حضارة تاريخية، وآثار حضارتنا يزورها الناس من أنحاء الدنيا، لكننا يجب أن نعترف بأننا تخلفنا عن الأوربيين بعد أن انتقلت إليهم راية العلم.

الآن ننقل العلم عمن تفوقوا مهما تكن ظروف تفوقهم، وهذا لا ينفى إنجازاتنا التاريخية، ويجب ألا يكون سببا فى فقدان الثقة فى قدراتنا. يجب أن نعترف بحاضرنا، لكى نتمكن من تغييره، لأن الماضى لا يشفع لأحد، ما لم يجتهد ليتغلب على تخلفه. والاعتراف بفقر حاضرنا، ليس إقرارا بأن

المجتمعات التى سبقتنا أكثر عبقرية، ولا هو إقرار بأن أوضاعنا الراهنة لن تتغير، فما هو إلا اعتراف بأمر واقع. وثقتنا فى أنفسنا لا يدعمها فقط تاريخنا، بل تدعمها أولا قدرتنا على التعلم، ونقد ميراثنا الفكرى واكتشاف مواطن النقص فيه. وهو نقص طبيعى ناتج عن توقف ذلك الفكر عند تاريخ مضى. وبهذه الثقة وحدها سنكون قادرين على سد فجوة التقدم العلمى والتكنولوجى بيننا وبين قادة الحضارة الحديثة.

1-2 علم الاجتماع وتغيير الواقع

لا تكتفى الدراسات الاجتماعية بتقديم حقائق وأرقام عن المجتمع، بل تقدم وجهة نظر وتطور طريقة فى التفكير ونظرة ناقدة لكل جوانب الحياة الاجتماعية. بهذا ينمو الوعى، وهو شرط ضرورى لإدراك الواقع وضرورى بالتالى لتغييره. وبديهى أننا لا نستطيع أن نغير شيئا قبل أن ندرك كنهه وتتغير نظرتنا إليه. والتغير الاجتماعى يبنى إذن على حالة من الاستنارة، تجعل الفرد لا يفكر فقط فى ذاته، بل يفكر فى المجتمع، وقد يتخذ موقفا مضادا لما هو شائع ولا يساير المفاهيم والاتجاهات السائدة. ولكننا يجب أننبدأ من البداية فنعرف أولا ما هو علم الاجتماع.

1-2-1 تعريف علم الاجتماع

توجد تعريفات عديدة لعلم الاجتماع، تتناوله من زوايا مختلفة تمثل فى مجملها شرحا متكاملا له. نفهم من القواميس (Oxford، أيضا موسوعة علم الاجتماع، Encyclopedia of Sociology,) أنه علم دراسة المجتمع الإنسانى.

ويعرفه بيرجر Berger (1963: 27)، بأنه علم يهتم بفهم المجتمع بصورة منهجية، فيرى العام من خلال الخاص. ويعنى بذلك أنه يكتشف الطابع العام من خلال رؤية الحالات الخاصة. ويكتفى آخرون بتعريف النظرية الاجتماعية، باعتبارها أهم عناصر علم الاجتماع.

نتوقف قليلا عند بيتر بيرجر، لأنه يحدد منهجية الدراسة، بحيث يبدأ النظر فى أوضاع المجتمع من خلال النظر فى أوضاع الأفراد والجماعات. سنرى من خلال الفرد فئة اجتماعية هى الفئة التى ينتمى إليها، فقد يكون طفلا أو امرأة أو رجلا، وقد يكون عاملا أو مديرا أو صاحب عمل. وسنجد أن انتماءه إلى فئة من تلك الفئات يحدد مركزه الاجتماعى، ويؤثر فى سلوكياته، ويحدد طابع حياته بصفة عامة، كما يحدد علاقاته داخل المجتمع وتفاعلاته مع غيره من المنتمين لنفس فئته أو للفئات أخرى.

نتوقف مرة أخرى لنتساءل عن أثر وجود الناس معا، وهنا نلاحظ تأثير المجتمع على الفرد. وما يبدو للعيان عادة هو أن الفرد يقرر لنفسه ما يفعله، لكننا بعد التأمل سوف نكتشف أن هذه الرؤية المعتادة لا تلتقط تأثير المجتمع على الفرد، وهو تأثير كبير يصل إلى حد تشكيل نظرة الفرد إلى الحياة، والتأثير على قراراته. ويبدو ذلك واضحا حتى فيما يعتبر أكثر الأمور خصوصية كما فى حالات الحب والزواج والطلاق. لهذا تختلف تقاليد الزواج من مجتمع لآخر ومن فئة اجتماعية لأخرى، وتختلف شروط الطلاق كذلك. وقد يقال هذه فروق لها جذور دينية، وهذا صحيح، لكن الدين حالة اجتماعية ولا تخص فردا بعينه.

هذا الارتباط بجذور دينية يلمس عن قرب فكرة النظرية الاجتماعية، فالنظرية يفترض أن تفسر ما يحدث فى المجتمع، وتحاول اكتشاف القواعد

التى تتحكم فى مختلف السلوكيات أو العلاقات داخل المجتمع، كما تحاول الكشف عن أنماط السلوك. (أنظر : محمد غلوم "مترجم"، 1999). والسلوكيات الفردية أنماط، بمعنى أنها تخضع لقواعد يحددها المجتمع، وهى بالتالى ليست سلوكيات عشوائية فردية لا رابط بينها. وهكذا تتشابه سلوكيات أعداد كبيرة من الأفراد، فى المواقف المتماثلة. ويحدث هذا على مستوى المجتمع الكبير أو فى الجماعات أو المجتمعات الفرعية التى يتكون منها ذلك المجتمع.

1-2-2 النظرة الاجتماعية

قد لا يدرك الأفراد العاديون الأنماط الاجتماعية، ولكن يدركها المهمشون الذين تتم إزاحتهم إلى خارج حدود المجتمع. يحدث هذا لأن هؤلاء ينظرون إلى المجتمع من خارجه فيدركون أنهم يمثلون أنماطا اجتماعية خاصة، ويدركون بوضوح كيف تشكلت أوضاعهم بتأثير المجتمع. والأمثلة كثيرة منها النساء والمهاجرون والمعاقون والشواذ. ولكى نرى ما هو اجتماعى، نحتاج لأن نرجع إلى الخلف خطوة كى نرى أوضاع المجتمع من خارجه، من الزاوية التى يراه منها أولئك المهمشون، لا من الزاوية التى اعتدنا أن ننظر لكل شئ من خلالها.

يمكن أيضا رؤية القوى المؤثرة فى المجتمع فى فترات الأزمات، إذ يخرج الناس من حالة التوازن التى اعتادوا عليها. حين تنتشر البطالة مثلا، يكتشف الباحث عن عمل أنه ليس وحده وأن المشكلة ليست شخصية. وحينئذ يدرك أن النظام الاقتصادى هو السبب لأنه عاجز عن توفير وظائف كافية لمن يبحثون عن عمل. وحين تصل الأزمة إلى حد الثورة يكون الناس قد أدركوا

أن النظام السياسى هو مصدر الأزمة، وأنه لا بد أن يتغير. وسيساعدنا علم الاجتماع على فهم أوضاع المجتمع بطريقة منهجية بدلا من أن نستنتجها بالصدفة.

يكفى أن يساعدنا علم الاجتماع على فهم المجتمع لكى يساعدنا على تغييره، إذ أن الفهم يبعدنا عن النظرة التقليدية التى تدفعنا لأن نأخذ الأمور مسلما بها. حين ندرك مثلا طابع الخلافات بين الرجال والنساء وندرك أثر التمييز على أساس النوع الإنسانى، نبدأ التفكير فى تقليل المزايا التقليدية التى اعتاد المجتمع أن يعطيها للرجال. وسنكتشف أنه مثلما يحدد المجتمع للفرد ما يجب أن يفعله، يستطيع الفرد بوعيه أن يؤثر فى المجتمع. وهذه عملية تفاعلية تستغرق وقتا، لكنها تحدث أثرها فى النهاية. ونستطيع أن نرى ذلك فى حياتنا اليومية، حيث تتألف جماعات تدعو إلى تغيير عادات أو سلوكيات اجتماعية مختلفة.

هكذا يساعدنا علم الاجتماع على معرفة القوى الاجتماعية، وإدراك الاختلافات بينها. وسندرك ما يترتب على ذلك من معاناة فئات من الناس واستفادة فئات أخرى. وسندرك بهذا مغزى ما قد يوجد من نزاعات، ومغزى ما تفعله وما تدعو إليه مختلف القوى. ويمكننا بالتالى أن نحدد دورنا وكيف نكون أكثر فاعلية وأكثر قدرة على التأثير. وبجانب تلك الفوائد التى تحققها لنا دراسة علو الاجتماع توجد مشكلات، فالمجتمع الذى ندرسه يتغير. وقد تصبح نتائج دراستنا قديمة ولا تعبر عن الواقع لأن الواقع ربما يكون قد تغير حين تظهر نتائج الدراسة.

يجب أن تتغير معلوماتنا إذن بسرعة لتتسق مع التغير الذى يحدث فى المجتمع، خاصة وأن التغير سريع فى هذا العصر. ودراساتنا ذاتها تؤثر على

المجتمع، وهى تساهم فى تغييره. وبالتالى يجب ألا نظن أن أى دراسة هى دراسة نهائية، وعلينا أن نتابع دراساتنا لتواكب ما يحدث من تغير. ويبقى أننا جزء من المجتمع الذى ندرسه، ولهذا فالدراسات الاجتماعية متحيزة، لأنها من خالنا تتأثر بثقافة المجتمع. ولهذا لا تنطبق دراسة مجتمع ما بالضرورة على غيره من المجتمعات، ولا بد أن تكون لكل مجتمع دراساته الاجتماعية الخاصة به.

1-3 أصول علم الاجتماع

إذا قلنا علم الاجتماع، فإننا نقصد علم الاجتماع الحديث، وبداياته تختلف عما كتب الأقدمون. ويستوعب العلم بعد ضبط مناهجه كل الكتابات والأفكار الأقدم، ومنها كتابات ابن خلدون وغيره من المفكرين المسلمين. هذه الأفكار القديمة ترتبط بالمجتمعات التى نشأت فيها وبمراحل التطور التى كانت تمر بها تلك المجتمعات فى حينها. وبالمثل ترتبط نشأة علم الاجتماع الحديث بالمجتمعات الصناعية، وقد نشأ فى مرحلة خاصة كانت تمر بها تلك المجتمعات. وسنرى أن من القوانين العلمية التى اكتشفها علم الاجتماع الحديث، ما ينطبق على كل المجتمعات القديمة والحديثة. ومن هنا إمكان استيعاب كل الأفكار الاجتماعية الأقدم.

لم يكن غريبا أن ينشأ فكر اجتماعى قبل مئات بل حتى قبل آلاف السنين. كان ذلك منذ بدأ يفكرون الناس فى مسألة نشوء الإنسان والمجتمع، وكان ذلك غالبا فى إطار الدين. وكانت هناك محاولات لتفهم الواقع الاجتماعى نجدها فى مؤلفات مفكرين بارزين فى الصين القديمة واليونان وروما. وثمة أسماء معروفة مثل لاو تسى أبيقور وديمقريط وأرسطو ولوقريط

وكار وأخرين (أنظر أوسيبوف، 1990). وقد كشف التاريخ عن فكر اجتماعى متنوع فى مصر القديمة، تحكيه وثائق لا تعرف أسماء مؤلفيها مثل وثيقة مرى كا رع، ووثيقة الفلاح الفصيح وعن أسماء حكماء مثل بتاح حتب وإيبور. ومن بين آلاف الوثائق الهامة توجد قصائد كانت مرثيات تعبر عن تشكك فى العقائد لا ينمو إلا بين أفراد شعب له مدنية ناضجة، على حد تعبير جيمس هنرى بريستد (1999).

يمكن القول بأن ظهور مثل ذلك الفكر فى تلك الفترات، قد لا يمثل سبقا أو تفوقا على العلم الحديث، لكنه يمثل عمقا حضاريا للمجتمعات التى نشأ فيها. وعلينا أن نفهم القديم فى سياقه والحديث فى سياقه، دون أن نعتبر أيا منهما أكثر صدقا، أو أكثر تفوقا، فالصدق أو التفوق فى سياقهما التاريخى أمور نسبية. وهكذا نسلم بأن علم الاجتماع كعلم حديث لم يتأسس إلا مع تبلور العلوم الحديثة، وأن أصوله ترجع إلى عصر التنوير. وهو عصر يختلف المؤرخون حول بدايته، فمنهم من يردها إلى النصف الثانى من القرن السابع عشر، ومن يردها إلى القرن السادس عشر، ومن يرجع بها إلى زمن طاليس باعتباره أول من أخضع الفلسفة لمنطق العلم بين الفلاسفة اليونانيين (مراد وهبة، 1999).

المتفق عليه على أى حال أن التنوير كان فى القرن الثامن عشر وأنه تغذى على أفكار فلاسفة العقل مثل ديكارت وسبينوزا ولايبنتس ولوك الذين طبعوا القرنين السابع عشر والثامن عشر بطابعهم بحيث سميت تلك الفترة عصر العقل The Age of Reason (عبد المنعم الحفنى، ب. ت: تنوير). يلخص البعض اتجاه التنوير بأنه إعمال العقل (مراد وهبة، السابق)، ويوجزها آخرون فى ثلاث مكونات هى العقل والطبيعة والتقدم، وأنها تكون فى مجموعها

الفلسفة الطبيعية والأخلاق الطبيعية. والطبيعية هنا تعنى صنع الإنسان على أساس العلم حيث كان الإيمان بالعلم مطلقا باعتباره وسيلة تنظيم الحياة على الأرض لتكون الأرض مدينة الله (عبد المنعم الحفنى، السابق).

يجب هنا أن نقترب أكثر من تفاصيل فكر التنوير، واستنادا إلى كتابات عدد من قادته مثل مونتسكيو Montesquieu، وروسو Rousseau، وفولتير Voltaire، يستنتج الباحثون أهم سمات عقلية التنوير على النحو التالى:

- العقل هو الذى ينظم المعرفة،
- الحقائق يتم استنتاجها عن طريق الحواس،
- العلم مرتبط بالتجريب،
- البحث عن قواعد أو استنتاجات يمكن تعميمها،

- الإيمان بإمكان تحسين الظروف الإنسانية،
- الإيمان بأن الفرد نقطة البداية فى بناء المعرفة،
- تقبل الآخر إيمانا بأن معتقداته ليست بطبيعتها أقل قيمة،
- الإيمان بالحرية،
- الإيمان بالسلطة الدنيوية ولو تعارضت مع السلطة الدينية.

(أنظر: ماكيونيس وبلامر Macionis and Plummer، 2008)

فى علاقة التنوير بنشأة علم الاجتماع، نلاحظ الارتباط التاريخى بين أفكار التنوير وعاصفة التطور الصناعى الذى كان يجتاح أوربا فى حينه، وما صاحب ذلك من تغير سياسى عاصف بلغ ذروته بعد الثورة الفرنسية. وكانت تلك العواصف تثير تساؤلات كثيرة حول تركيب المجتمع وعملية التغير

الاجتماعى. وردا على تلك التساؤلات ولد علم الاجتماع، لكن صياغة مصطلح "علم الاجتماع" Sociology لم تتم إلا عام 1838. وقد صاغه أوجست كونت Auguste Compte من كلمتين إحداهما إغريقية والأخرى رومانية وتعنيان معا دراسة المجتمع. وقد قسم دراسته للمجتمع إلى قسمين، تناول فى أحدهما تركيب المجتمع وسماه الثوابت الاجتماعية Social Statics. وفى الآخر تناول تغير المجتمع وسماه الآليات الاجتماعية Social Dynamics (المرجع السابق)

1-4 علم الاجتماع كعلم

يختلف علم الاجتماع عن الفكر الاجتماعى. منذ أقدم العصور ظهر فكر اجتماعى كان يتناول طبيعة المجتمع. وكان ذلك جزءا من الفكر الدينى، حيث كان الدين يقود الفكر الإنسانى منذ أقدم العصور. وقد بدأ تراجع تلك الظاهرة فى أوربا فى العصور الوسطى. وكان تفسير ذلك الفكر للظواهر الاجتماعية أنها إرادة الله. ولم يخرج ابن خلدون كثيرا عن ذلك، وقد تناول ضرورة الاجتماع البشرى بمعنى ضرورة العيش فى مجتمع. وتناول أيضا تطور المجتمعات البشرية قسمه إلى مراحل تبدأ بالبداوة ثم الملك ثم الحضر، تنتهى بالهرم والفساد. ولم يكن لديه فى النهاية تفسير علمى لذلك، واكتفى بوصفه. وكان الدين عنده جاهزا كتفسير نهائى. (مقدمة ابن خلدون:الباب الأول من الكتاب الأول).

لا نلوم الأقدمين على ذلك، فمناهج البحث العلمى وإن كانت مقدماتها قد ظهرت مبكرا، إلا أنها لم تضبط إلا حديثا، عندما سمح تطور المجتمع الإنسانى بذلك. وهكذا لا نستطيع أن نتحدث عن علم اجتماع منضبط إلا فى

العصر الحديث، عندما بدأ أوجست كونت تطبيق المنهج العلمى فى دراسة المجتمع. وقد قسم تطور الفكر الاجتماعى إلى ثلاث مراحل: مرحلة دينية، ومرحلة ميتافيزيقية (فلسفة ما وراء الطبيعة)، ومرحلة العلم، ومن الباحثين من يقول أن سان سيمون هو الذى طور هذه الفكرة، ثم اكتشفها أوجست كونت ونسبها إلى نفسه (أحمد القصير، 2012: 24).

لا حاجة إلى إعادة تناول المرحلة الأولى على أى حال، بعد أن صار أمرها واضحا، أما المرحلة الثانية فتبدأ مع عصر النهضة الأوربى، وفيها كانت أوضاع المجتمع تعتبر ظاهرة طبيعية. وهنا يختلف معنى المصطلحات، فالطبيعى هنا يقصد به ما ليس من صنع الله. وأما المرحلة الأخيرة، وهى مرحلة العلم فتبدأ مع تطور المنهج العلمى ودخول الإنسانية إلى عصر العلم. وقد كان أوجست كونت وهو يطبق المنهج العملى فى دراسته المجتمع، يرى أن المجتمع مثله مثل الطبيعة، تحكمه قوانين علمية ثابتة (ماكيونيس وبلامر Macionis and Plummer: 14). لكن هذا لم يعد مقبولا، لأن السلوك البشرى أكثر تعقيدا من الظواهر الطبيعية.ف

ما يميز المجتمع الإنسانى من تغير يجعل غير مقبول أن نقول بأنه تحكمه قوانين ثابتة. ومن ناحية أخرى، لقد نضج العلم وصار من المعروف أن الكون ليس بالانضباط الذى نتخيله، وأنه لا يوجد به شئ مطلق، وأن التصور القديم بأنه تحكمه قوانين ثابتة وحتمية ميكانيكية هو تصور خاطئ. لقد تبين أن هناك قدرا من الفوضى وأن كل شئ فيه نسبى. وقد تغيرت قوانين العلم فعليا فى القرن العشرين، ومن الصعب أن نقل الآن أن القوانين العلمية المكتشفة نهائية وثابتة (أنظر: يمنى طريف الخولى، 2000).

1-5 التغير وعلم الاجتماع

شهدت أوربا تحولات عظمى صاحبت الثورة الصناعية، فقد ترتب على تطور الصناعة اتساع المدن وتكاثر أعدادها، وهجرة ملايين الناس إليها بحثا عن عمل. وكان المهاجرون إلى المدن للعمل فى المصانع غرباء على خلاف ما كان عليه حالهم فى الريف قبل الهجدرة، وهكذا تفككت الروابط الاجتماعية وتغيرت التقاليد القديمة التى عايشها الإنسان آلاف السنين. وكانت أعداد المهاجرين كبيرة فظهرت فى المدن مشكلات البطالة والتشرد والفقر، وزادت الجريمة وضعفت الأسرة، وزادت الأمراض. وبهذه التحولات تحطمت أشكال التنظيم الاجتماعى التقليدية وبدأت النظم القديمة فى الانهيار.

ترتب على تطور المدن الصناعية أيضا ظهور أفكار جديدة عن الديمقراطية والحقوق السياسية. وبعد أن كان الملوك يحكمون باسم الله، وكان كل شخص يتحدد وضعه الاجتماعى بمشيئة الأقدار، رأى مفكرون مثل توماس هوبز، وجون لوك، وآدم سميث أن كل فرد يقرر مصيره حسب مصلحته. وصار السائد فى الفكر السياسى حرية الفرد وحقوقه، وأقر تلك الحقوق إعلان الاستقلال الأمريكى، وجاءت الثورة الفرنسية لتعمق هذا الفكر. وفى هذا المناخ ازدهر علم الاجتماع، فى البلاد التى كانت فيها هذه التطورات أكثر عمقا وهى فرنسا وألمانيا وانجلترا.

فى هذا السياق تطورت نظريات اجتماعية مختلفة، منها نظرية فيرديناند تونيز Ferdinand Toennies (1887-1963) والتى تكاد تنعى التقدم وتعتبر المجتمع الحديث أسوأ من القديم. كان تونيز يرى أنه فى الحياة التقليدية القديمة كانت العلاقات الاجتماعية تبنى على القرابة والجيرة وتغذى العواطف

الجماعية والفضيلة والشرف، أما فى المجتمع الصناعى الحديث فقد سادت الفردية والمصالح الأنانية، وضعفت الأسرة وصارت قوة عمل نمط حياتها عمل شاق متكرر بطئ التغير. ولما كان الماضى لن يعود، فقد كان يأمل فقط أن يتطور نظام اجتماعى جديد يجمع ما بين العقلانية والفكر العلمى وبين قيم المسئولية الجماعية القديمة.

عموما أنتج التطور الاجتماعى فى هذا السياق نموذجين فكريين متعارضين، أحدهما محافظ عبر عنه أوجست كونت وآخرون مثل توينيز، وكان هذا النموذج يخشى اجتثاث الناس من مجتمعاتهم القديمة، وكان بالتالى يركز على الحفاظ على تراث الأسرة والأخلاق التقليدية. أما النموذج الثانى فكان يعبر عنه كارل ماركس[1]، ولم يكن يثير قلقه فقدان التقاليد القديمة، وكان يركز بدلا من ذلك على نتائج أخرى للتقدم التكنولوجى حيث تتركز الثروات الجديدة فى أيدى قلة من الناس بينما يبقى الغالبية فى حال من الفقر والبؤس.

كان هذا ما أنتجته الثورة الصناعية الأولى التى بدأت فى القرن الثامن عشر، وقد أعقبت ذلك ثورة صناعية ثانية فى القرن التاسع عشر، وكانت النتيجة زيادة تعمق الفردية، لكن تطورت أيضا وسائل اتصال وانتقال جديدة زادت التواصل بين الناس، شملت التليفون والراديو والتليفزيون وانتشار السيارات والطائرات، ثم انتشار التليفون المحمول والإنترنت. وبذلك اتسع عالم الفرد ولم يعد قاصرا على المدينة التى يعيش فيها. ومع ذلك زادت التوترات وزاد التعصب. وربما كانت الفردية المتنامية سببا لذلك، غير أن الناس قد يجدون فى الروابط القديمة مخرجا، فيعودون إليها وتظهر قيم التعصب الدينى أو التحيز الجنسى أو العرقى.

11111 عاش فى الفترة 1818-1883

والآن تبدأ ثورة صناعية ثالثة تستثير موجات جديدة من التغير، وجهودا علمية جديدة لفهمها. وكل هذه الثورات لم تحدث بعد فى مصر، فقد اختلف مسار التطور فى بلادنا، وتخلفت نتيجة لذلك عن دخول عصر الثورات الصناعية. وبدلا من هذا وقعت تحت نفوذ قوى أجنبية تحقق فيها ذلك التقدم، وترتب على هذا دخول نوع من الصناعات وتفكك النظام الإنتاجى القدم وتغير البنية الإنتاجية والعلاقات الاجتماعية تبعا لذلك. ونتجت عن ذلك صراعات سياسية وتطورات اجتماعية من نوع آخر، تحتاج إلى دراسات يظل علم الاجتماع مسئولا عنها، كما يظل مسئولا عن دراسة التطور الجارى والمتوقع.

يتعين بالإضافة لذلك النظر إلى علم الاجتماع كجزء من العلوم الاجتماعية والإنسانية، يتداخل مع علوم أخرى ويستفيد منها. يتداخل مع التاريخ إذ يتساءل الباحث الاجتماعى متى وفى أى ظرف نشأت الظاهرة التى يدرسها. ويتداخل مع الفلسفة إذ يتساءل الباحث عن فروض تقف خلف ما يدرسه من ظواهر فيما يتعلق بالطبيعة الإنسانية والاختيار والنظام الاجتماعى. ويتداخل أيضا مع الأنثروبولجيا حيث التساؤل كيف تختلف أشكال الظاهرة الاجتماعية تبعا للفروق الثقافية بين المجتمعات. وتوجد تداخلات أخرى مع الأدب والاقتصاد والسياسة وعلوم الحياة، ومع فروع علمية تهتم بموضوعات خاصة كالمرأة والسينما وحقوق الإنسان.

2

النظرية الاجتماعية

تربط النظريات بين مجموعات من الحقائق، وبهذا الربط يتم تنظيم المعرفة وينضج البناء الفكرى. ويتطلب بناء نظرية اجتماعية تحديد موضوع تتناوله، ونوعا من الحقائق تجمع بياناتها، وفروضا يمكن على أساسها الربط بين تلك الحقائق. وقد انتهى اثنان من مؤسسى علم الاجتماع، هما أوجست كونت وكارل ماركس، إلى رؤى مختلفة للعالم الحديث. وكان اختلاف الرؤى ناتجا عن اختلاف زاوية النظر إلى المجتمع، حيث يمكن النظر إليه من زاوية كيفية بقائه كما هو، أو كيفية تغيره، كما يمكن النظر من زاوية ما يحدث من عمليات اجتماعية، أو ما يمكن أن يحدث من تغير مرغوب. ويمكن التركيز على عوامل وحدة المجتمع أو عوامل تقسيمه، والتقسيم ممكن على أساس الجنس والعرق والطبقة الاجتماعية.

2-1 علم الاجتماع الكلاسيكى

ظهرت خلافات واسعة بين السوسيولوجيين، وثار جدل لم يتوقف وتطورت فى المائة عام الماضية ثلاثة اتجاهات شكلت علم الاجتماع الكلاسيكى. كان كل من الاتجاهات الثلاثة ينظر إلى المجتمع من إحدى الزوايا، فكان منها ما ينظر من الزاوية الوظيفية، أو من زاوية الصراع أو زاوية الفعل. وكل اتجاه يشكل إطارا لنظريات مختلفة تعالج الحقائق الاجتماعية من زاوية نظره. وقد ظلت تلك الاتجاهات الكلاسيكية تتعرض للتنقيح والتطوير باستمرار، بينما كانت تنبثق اتجاهات جديدة تنمو الآن إلى جانبها.

2-1-1 المنظور الوظيفى

المنظور الوظيفى هو إطار لنظريات تتناول المجتمع كمنظومة معقدة لكل جزء من أجزائها وظيفة محددة وتعمل كلها معا لتحقيق تضامن المجتمع واستقراره. معنى هذا أنه توجد بنية اجتماعية تحتوى أنماطا للسلوك ثابتة نسبيا. وفى هذه البنية تكون لكل نمط من السلوكيات وظيفة محددة، فيكون هناك مثلا نمط للأسرة، وآخر للمدرسة وثالث لتبادل التحية، وهكذا. وتقوم هذه البنية إذن على أساس التكامل الوظيفى، الذى يحافظ على المجتمع بشكله الحالى على الأقل. ويشبه المجتمع من هذا المنظور بجسم الإنسان، لكل عضو فيه وظيفة تساهم فى بقاء الكائن الإنسانى كذلك يقوم كل جزء من أجزاء المجتمع، بوظيفة تساهم فى الحفاظ عليه.

كان المهندس الأول لهذه النظرة الوظيفية أوجست كونت فى فرنسا، الذى اهتم بتماسك المجتمع فى زمن كانت تجرى فيه التغيرات العاصفة التى ترتبت على الثورة الفرنسية. وبعد عدة عقود واصل دوركاييم دراسة المجتمع هناك من نفس هذا المنظور. وفى هذا الاتجاه أسهم هربرت سبنسر[2] فى بريطانيا، أما فى الولايات المتحدة فقد جمع تالكوت بارسونز[3] Talcott Parsons بين آراء سبنسر ودوركاييم. وبعد ذلك جاء روبرت ميرتون Robert Merton (1968) ليضيف جديدا إلى تلك النظرة.

أضاف ميرتون أن النمط الوظيفى قد تختلف نتائجه أو آثاره بالنسبة لمختلف أعضاء المجتمع. مثال ذلك أن الأسرة التقليدية تهتم برعاية الأطفال، وتميز الرجال، وتقلل فرص النساء. أضاف أيضا أن الوظائف المختلفة لا يفهمها الناس كلها، ولذلك يقسم الوظائف إلى واضحة وغير واضحة. مثلا،

---

[2] عاش فى الفترة 1820 - 1903

[3] عاش فى الفترة 1902– 1979

للتعليم الجامعى وظيفة واضحة هى تهيئة الفرد لأعمال معينة، لكن له أيضا وظائف غير واضحة، ففى الجامعة يتعرف الفرد على شريك حياته، وفيها يبقى ملايين من الشباب خارج سوق العمل حيث لا يستطيع النظام الاقتصادى إيجاد أعمال لهم، وتعزز الجامعة عدم المساواة، لأن ارتفاع تكلفة الدراسة بها، بحيث يستبعد أبناء الفقراء.

هذه الملاحظة الأخيرة عن الجامعة تشير إلى إضافة ثالثة لميرتون هى أن الوظائف قد لا تكون كلها مفيدة، بل قد يكون لبعضها أضرار اجتماعية ونتائج غير مرغوبة. وبطبيعة الحال لا يتفق الناس على ما يعتبر ضارا أو نافعا. واستنادا إلى هذا كان هناك اعتراض تاريخى من رجال الصناعة فى انجلترا على توفير التعليم الفنى للفئات العاملة هناك. وكان ذلك بعد الثورة الصناعية، واستمر البرلمان يرفض لمدة خمسين عاما متتالية مشروع قانون يقترح إنشاء تعليم صناعى. وكان ذلك الاعتراض مبنيا على التحوط كى لا يؤدى ذلك إلى تسرب الأسرار الصناعية ووصوله إلى دول أخرى منافسة أنظر: حمدى الحناوى، 2011: 59-60).

ظل هذا المنظور الوظيفى سائدا فى على الاجتماع حتى ستينيات القرن الماضى، ثم بدأ يضعف بعد ذلك، ولم يعد يستخدم كثيرا هذه الأيام. ونقطة ضعفه الرئيسية هى اعتبار المجتمع خاضعا لنظام طبيعى يجعله متماسكا وموحدا، والتغاضى عما هو واضح من اختلاف فى البنية الاجتماعية من مجتمع لآخر وما يحدث فيها من تغير عبر الزمن فى نفس المجتمع. وتتغاضى الوظيفية أيضا عما يوجد من عدم المساواة على أسس طبقية وعرقية وجنسية، وما يتولد عن ذلك من صراع وتوتر. وكان هذا يجعل الوظيفية ذات طابع محافظ.

2-1-2 منظور الصراع

منظور الصراع هو إطار لنظريات تتناول المجتمع من زاوية عدم المساواة وما يتولد عنها من صراع. وهذا المنظور يكمل منظور الوظيفية، فهو يرى للتمايز الفئوى وظائف اجتماعية، لكنها ليست مفيدة للمجتمع كله بل تفيد بعض فئاته وتسبب الضرر لفئات آخرى. النقطة الرئيسة هنا هى عدم المساواة، سواء على أساس طبقى أو عرقى أو عنصرى أو جنسى. وهذه الحالة تنتقل من جيل إلى جيل، بطرق مختلفة، ويؤدى عدم المساواة الاجتماعية إلى عدم المساواة فى امتلاك الثروة والقوة والتعليم والمنزلة الاجتماعية.

من زاوية الصراع يمكن رؤية فئات متعارضة، إذ يوجد أغنياء وفقراء، ورجال ونساء، وبيض وسود، وهكذا. وكل فئة متميزة تحاول المحافظة على تميزها وتدخل فى صراع مع المحرومون الذين يصارعون لتحسين أوضاعهم. فى التعليم مثلا لا يستفيد الجميع بالتساوى بل يخرج أبناء الفقراء من التعليم الثانوى إلى أعمال منخفضة الأجر، بينما يواصل أبناء الأغنياء التعليم الجامعى ليلتحقوا بالأعمال المتميزة من حيث السلطة والأجر. ويرتبط بذلك صراع حول مجانية التعليم، وهكذا. والواضح أن هذا صراع له جذوره فى بنية المجتمع.

من هذا المنظور لا يكون الغرض من دراسة المجتمع مجرد فهمه فقط بل يكون الغرض تغييره. وقد كان كارل ماركس مهندس هذا المنظور. وعلى شاهد قبره فى مقابر هاى جيت فى لندن، كتبت عبارة توضح ذلك، وتقول أن

الفلاسفة حاولوا حتى الآن تفسير العالم، ولكن الأهم أن نغيره. وكان هذا المنظور مزدهرا فى ستينيات وسبعينيات القرن الماضى، لكنه تراجع بعد ذلك. ونقطة ضعفه أنه يتجاهل ما هو مشترك بين الناس من قيم واعتماد متبادل مما يدفع إلى الوحدة. وبجانب ذلك يمكن القول بأن له أهدافا سياسية تبعده عن الموضوعية العلمية (ماكيونس وبلامر).

من هذه الزاوية سنرى أن هذا المنظور لا يتقبل فكرة حياد العلوم الاجتماعية، إذ يرى أن هذا الحياد يعنى عمليا تقبل الأوضاع الاجتماعية الجارية، بدلا من نقدها وإصلاح ما فيها من عيوب (أحمد القصير: 60-64). وهذا الصمت عن العيوب ينفى مبدأ الحياد ويجعل لتلك العلوم بصفة عامة نتائج سياسية. ويبقى نقد إضافى لهذا المنظور وللوظيفية على حد سواء، وهو أن كليهما ينظر إلى المجتمع نظرة عامة. وبهذا لا تظهر من المجتمع سوى مكوناته الرئيسية أو الكبرى، كالأسرة والطبقة ولا يظهر فى الصورة أثر تفاعل الأفراد (نفس المرجع).

2-1-3 منظور الفعل الاجتماعى

يشترك المنظور الوظيفى ومنظور الصراع كما سبق بيانه، فى رؤية المجتمع على مستوى كلى Macro-level، بمعنى التركيز على رؤية البنية الاجتماعية العريضة. هذه النظرة تتناول المجتمع ككل بينما من منظور الفعل يتم تناول المجتمع من زاوية موقف أفراده تجاه بعضهم البعض وهو ما يعنى النظر على المستوى الجزئى Micro-level ليمكن رؤية التفاعلات الاجتماعية

فى المواقف المختلفة. ومن مؤسسى هذا المنظور ماكس ويبر[4] Max Weber.

كان ويبر يدرك أهمية التكنولوجيا ويتفق مع ماركس فى آرائه عن الصراع الاجتماعى، لكنه اختلف معه فى تحليله الذى يركز على الإنتاج المادى، فكان يرى أن العالم لا يتشكل على أساس التكنولوجيا والرأسمالية بل على أساس طرق جديدة للتفكير. وعلى هذا الأساس كان يرى أن الأفكار وخاصة العقائد والقيم لها قوتها وتأثيرها فى عمليات التحول. وهذه الفكرة تقترب من فكرة التفاعل الرمزى التى تقول أن المجتمع هو نتاج التفاعلات بين الناس فى الحياة اليومية، وبناء على ذلك يقول جورج ميد[5] George Mead أن شعورنا بذاتنا يتراكم خلال الزمن بناء على خبرتنا فى هذه التفاعلات.

بهذه النظرة درست مدرسة شيكاغو فى علم الاجتماع حياة المدينة[6]. وقد أسس آخرون نظرتهم الخاصة على المستوى الجزئى مثل إرفنج جوفمان[7] Erving Goffman ، صاحب نظرية التحليل الدرامى، التى تصور الناس كأنهم ممثلون على المسرح يؤدون أدوارهم أمام الآخرين. ومن نفس المنظور تطورت نظرية تحليل التبادل الاجتماعى، التى تصور التفاعلات الاجتماعية كنوع من التفاوض، يسترشد فيه الناس بما يسعون لتحقيقه من كسب وما قد ينالهم من خسارة.

---

[4] عاش فى الفترة 1864- 1920

[5] عاش فى الفترة 1863- 1931

[6] تنسب مدرسة شيكاغو فى علم الاجتماع إلى جامعة شيكاغو، وقد بدأت أول برنامج كبير للدراسات الاجتماعية فى الولايات المتحدة وذلك منذ قرن تقريبا، وأسهمت فى تطوير علم الاجتماع الحضرى. وكان الدافع لذلك نمو مدينة شيكاغو وتنوع سكانها. وبهذا البرنامج صارت تلك المدينة محور اهتمام أجيال من السوسيولوجيين الأمريكيين. وكان أبرزهم روبرت عزرا بارك Robert Ezra Park (1864-1944)، ولويس ويرث Louis Worth (1897-1952)

[7] عاش فى الفترة 1922-1982

أما مشكلة هذا المنظور فهى أنه بالتركيز على التفاعلات بين الأفراد يغلف البنى الاجتماعية الأكبر بالغموض، ويتغاضى عن التأثير الواسع للثقافة الاجتماعية وتأثير عوامل مثل الطبقة والنوع الجنسى والعرق. وهكذا لا يمكن اعتبار ذلك المنظور صحيحا أكثر من المنظورين السابقين. والحقيقة كل منظور من الثلاثة يرى المجتمع من زاوية مختلفة، ولا يمكن اعتبار أحدها هو الصحيح وحده. ولتفسير المجتمع على نحو صحيح لا بد من النظر إليه من كل الزوايا، والاعتماد بالتالى على المنظورات الثلاثة معا، وربما يضاف النظر من زوايا أخرى أيضا.

2-2 أصوات ومنظورات أحدث

مع تطور المجتمعات وتطور علم الاجتماع، ظهرت نظريات حديثة، لكن بعضها لا يمثل فى الحقيقة سوى تطويرا لنظريات سابقة. تركز بعض النظريات الحديثة على جوانب مختلفة من الفعل كاللغة والمحادثة (تحليل المحادثة Conversational Analysis). ويركز بعضها على تحليل منظومة الرموز واللغات التى تمثلها (العلاماتية Semiotics) أو على كيفية عمل الدولة (كما فى ماركسية الثوسير[8] Althusserian Marxism). لكن نظريات أخرى تذهب إلى أبعد من ذلك، فيرى البعض أن علم الاجتماع فى أزمة، وأن

[8] نسبة إلى لويس ألثوسير Louis Althussser (ينطق فى الفرنسية ألتيسيه) وهو ماركسى لكنه ناقد للماركسية، ويرتبط اسمه بالماركسية البنيوية. وأهم مرتكزاتها رفضها للفكرة الماركسية التقليدية التى ترى الدولة الرأسمالية أداة لخدمة الطبقة الرأسمالية بصورة مباشرة عن طريق ارتباطها بالرأسماليين. وبدلا من ذلك ترى الماركسية البنيوية أن الدولة تحافظ على النظام الرأسمالى بغض النظر عن أى مصالح مباشرة للرأسماليين، فهى تنظيم الصراع بين الرأسماليين وبين الطبقة العاملة ولا تلغيه، وفى هذا الإطار قد تعمل على رفع الأجور وزيادة الضرائب على الرأسماليين، للمحافظة على النظام الرأسمالى فى الأجل الطويل (Wikipedia: Louis Althusser، وأيضا، Wikipedia: Structional Marxism)

منظوراته وآراءه شديدة الضيق. وتحاول بالتالى أن ترى المجتمع من زوايا أو مواقع أو وجهات نظر ثقافات أخرى.

2-2-1 نقد الاتجاهات القديمة

تنتقد كثير من الأصوات الجديدة النظريات السائدة القديمة التى سميناها كلاسيكية، وتقودنا إلى القول بأن علم الاجتماع كان انتقائيا دائما، بمعنى أنه كان ينظر إلى المجتمع من زاوية مختارة. ويرى كثير من باحثى علم الاجتماع الحديث، أن علم الاجتماع الكلاسيكى كتبه رجال بيض غربيون. ولهذا نرى فى الكتابات الحديثة ما افتقده علم الاجتماع فى الماضى. هذا لا يعنى أن كل شئ صار نسبيا بل يعنى أننا نرى المجتمع الآن بشكل أعمق. وإذا كنا على وعى بذواتنا فسنفهم المجتمع دائما من زاوية معينة أو من موقف معين، وهو ما حدث دائما فى الماضى، ولهذا لم نكن نرى صورة كاملة للمجتمع، ولم نعرف حقيقته كاملة.

سنرى مع ذلك أن تلك النظريات الجديدة تكمل القديمة ولا تحل محلها. وتشمل الأصوات الجديدة أصوات النساء والأقليات الإثنية والعنصرية، والمثليين والمثليات، والشعوب التى كانت مستعمرة، والمسنين والمعاقين وغير ذلك من الفئات المهمشة أو التى كانت الدراسات تتجاهلها. ويمكن تلخيص النقد الموجه لعلم الاجتماع الكلاسيكى فى بضع نقاط مختصرة على النحو التالى:

- كان علم الاجتماع يكتبه رجال، وكانوا يكتبونه عن الرجال ومن أجل الرجال. وكان الرجال هم البيض وغير المثليين ومن الطبقات المتميزة،

وبالتالى كان ذلك العلم متحيزا.

- تم تجاهل الموضوعات التى تهم الفئات الأخرى.
- الموضوعات التى كانت محل اهتمام كان يتم تقديمها بطريقة مشوهة، فكان علم الاجتماع فى أغلبه جنسيا، وعنصريا ويرتعد من المثلية.

2-2-2 أمثلة من الأصوات الجديدة

كان من أكثر الأمور وضوحا غياب أصوات النساء حتى سبعينيات القرن الماضى. وقد ظهرت موجة ثانية من الأنثوية، طورت علم اجتماع أنثوى ومنهجا بحثيا أنثويا، وكان النساء أو الدور الجنسى محور تحليلات هؤلاء. وهم يرون أن يكون لعلماء الاجتماع دور سياسى للعمل على تقليل تبعية النساء وتقليل تعرضهن للقهر فى مختلف المجتمعات على نطاق العالم. وهنا نلاحظ أنه لا يوجد صوت أنثوى واحد، ولا توجد أصوات موحدة وهو ما يعنى أن النساء لسن متشابهات على نطاق العالم. والقول بالتشابه يصبح ماهوية Essentialism، بمعنى أن نرى للمرأة ماهية أو جوهرا واحدا أينما كانت.

وصل الأمر لأن يرى بعض السوسيولوجيين (مثلا، جيدنز Giddens، 1992، 1999) أن جيلا جديدا من علم الاجتماع يتشكل الآن فى القرن الحادى والعشرين. ويسمى ذلك جيل ما بعد الحداثة. والمسألة أن عصر الحداثة الذى ولد فيه علم الاجتماع والذى عرف الثورة الصناعية وشهد تراجع النظم الاجتماعية القديمة، يتطور الآن بسرعة متزايدة، وبالتالى فعلى علم الاجتماع أن يتطور ليستوعب تلك التغيرات. ويصل آخرون (بودريارد Baudrillard، أنظر: ساندويل Sandywell، 1995) إلى درجة اعتبار أن علم الاجتماع قد مات، وأن علما جديدا يجب أن يحل محله.

يرفض آخرون هذا التطرف ويرون أن ما بعد الحداثة تدور فى إطار تحرير الاختلافات والعناصر المحلية، وبدلا من فكرة عقلانية واحدة مركزية للتاريخ ينفجر عالم الاتصالات العامة إلى كثرة من العقلانيات المحلية منها ما هو إثنى أو جنسى أو دينى أو ثقافى. ويرى البعض أن ما بعد الحداثة سوف يتميز بالاهتمام بثلاثة أشياء: احترام كثرة من زوايا الرؤية فى مقابل رؤية واحدة تتمتع بامتياز خاص؛ ودراسات محلية بدلا من الحكايات العامة؛ وتركيز على انعدام النظام ووجود التدفقات والانفتاح فى مقابل النظام والاستمرارية والقيود (ماكيونيس وبلامر Macionis and Plummer، 35-36).

مع ذلك، يجب القول بأن ما كان يسمى ما بعد الحداثة تنبثق منه الآن ثورة صناعية ثالثة (أنظر: Wikipedia: The Third Industrial Revolution)، سوف يدخل العالم معها فى عاصفة جديدة من التغيرات، أبعد مدى من أى تغيرات سابقة. وأن تطور علم الاجتماع سوف يتجاوز بالضرورة تلك الحدود التى يضعها أولئك الباحثون الذين يرفضون فكرة موت علم الاجتماع القديم. لا نقول بالضرورة أن هذا العلم قد مات، ولكننا نقول أنه عجز عن تشخيص معظم ما يعانيه عالم اليوم من توترات، ولهذا لم يستطع العالم أن يحل مشكلاته. وهذا يتطلب ثورة موازية للثورة الصناعية الثالثة، لا فى علم الاجتماع وحده بل فى كل العلوم الاجتماعية والإنسانية.

3

مناهج البحث الاجتماعى

يبدأ البحث الاجتماعى برصد ما يدور حولنا، من وجهة نظر إجتماعية، وسنجد فى هذه الحالة أنماطا اجتماعية تثير تساؤلاتنا. وسيكون علينا حينئذ صياغة تلك التساؤلات بنظرة ناقدة، بحثا عن تفسير لما نراه. ولكى نصل إلى إجابات صحيحة يجب أن نستوفى ثلاث قضايا أساسية، هى أن نحدد ما نبحث عنه، ونحدد أدوات البحث التى سنستخدمها، وأن نكون على بينة مما

قد يترتب على البحث من آثار. وقد سبق القول بأن الباحث الاجتماعى جزء من المجتمع، وله اتجاهاته وآراؤه الشخصية، وهذا يؤثر على أحكامه، وقد يؤثر على بحثه بصورة ما، وعليه أن يحتاط لذلك.

3-1 القضايا الأساسية

قلنا أن لدينا فى مجال البحث الاجتماعى ثلاث قضايا أساسية. وتشير القضية الأولى إلى ما نريد التوصل إليه، فهل نبحث عن حقائق تفصيلية وأدلة كافية على وجودها، أم نريد أن نفهم ما يجرى فى المجتمع بشكل عام؟ والقضية الثانية تتعلق بأدوات البحث، ولدينا أدوات معروفة كالمقابلة والملاحظة والاستبيان والتحليل الإحصائى. ويجب أن نختار منها ما يسمح لنا بالحصول على أكثر النتائج جودة، أى التى نتوقع أن تنتج لنا بأكبر قدر من الدقة ما نريد أن نعرفه. ويجب أن نعرف أن هذه مجرد أدوات، فهى ليست مطلوبة لذاتها، ولا تعتبر أى منها أفضل من غيرها، إلا بقدر ما نتوقع أن تحقق لنا مستوى الجودة التى نريدها.

أما القضية الثالثة، فتتعلق بمغزى إجراء البحث وما يترتب عليه من آثار بالنسبة لنا، وبالنسبة لمن يجرى البحث عليهم، وبالنسبة للمجتمع بصفة عامة. وهذا ينطوى على معان أخلاقية وسياسية، حيث لا ينفصل علم الاجتماع عن السياسة والأخلاق. وإذا بدا أن نتائج بحثنا محايدة فعلينا أن نتشكك فيها. لا حياد إلا عند جمع البيانات، كى لا تعطى صياغة الأسئلة وأسلوب توجيهها إيحاء بالإجابة. هذا معيار للموضوعية، وعلينا بعد ذلك أن نعلن عن اتجاهاتنا الشخصية كباحثين تجاه الموضوع الذى نبحثه، ليكون المطلع على البحث ونتائجه على بينة من أمره، وليمكنه الحكم على مدى موضوعية البحث

واتساقه العلمى.

هكذا نحدد نوعية الحقيقة التى نبحث عنها، ونحن على وعى باتجاهاتنا. وقد اعتاد الناس أن يتقبلوا يوميا نوعيات عديدة من المعارف تمثل كلها حقائق بالنسبة لهم. يمارس الطبيب مثلا عمله وفق ما يعرفه من علوم الطب، ثم يمارس معتقدات دينية تقول أن الله هو الشافى. وتختلف الأعمال اليومية للرجل عما تفعله المرأة، ويرى كلاهما فى ذلك أمرا طبيعيا مسلما به. ويسود اعتقاد بأن الفقراء أكثر ميلا إلى الجريمة من الأغنياء، وقد يكشف البحث العلمى أن الأغنياء لا يقلون ميلا إلى ارتكاب الجريمة، لكنهم يستطيعون الإفلات من الاتهام أو الإدانة. وقد يرى الجميع أن كل ما يفعلونه وما يعتبرونه حقائق، ما يسمى طبيعة بشرية.

لا يأخذ الباحث مسلما به ما يراه الناس حقائق أو طبيعة بشرية، لكنه يفترض أنها حقائق ثم يتبع أسلوب البحث والتجريب لاختبار صحة افتراضه، وللتوصل إلى استنتاجات ومعارف نسميها حقائق علمية. ونحن نسميها علمية لأن صحتها يتم اختبارها بوسائل لا تتأثر بميولنا أو معتقداتنا الشخصية. وقد يكون ما اكتشفناه من خلال البحث متعارضا مع المعتقدات السائدة، التى اعتدنا أن نتقبلها كحقائق فى حياتنا اليومية. ولكى نثق فيما نتوصل إليه، يجب أن نتقن أساليب البحث لنحصل على نتائج جيدة. ومع أننا نتحدث هنا عن التجريب، إلا أن البحث الاجتماعى ليس بحثا معمليا يمكن التحكم فى ظروفه وشروط إجراء التجارب فيه.

3-2 نوعان من علم الاجتماع

اختلاف البحث فى علم الاجتماع عن البحوث المعملية كبحوث علوم الطبيعة والكيمياء وعلوم الحياة، يصنع نوعين من علم الاجتماع، أحدهما وضعى والآخر إنسانى. والوضعية Positivism نظام تبنى فيه المعرفة على أساس تجريبى Empirical بمعنى إمكان التحقق منها عن طريق الحواس، حيث يمكن أن نلمسها أو نراها أو نقيسها بالطرق الإحصائية أو بغيرها. أما المعرفة الإنسانية Humanistic فهى نظام يرتكز على فهم المعانى، وهو يعتمد أيضا على التجريب مثل المعرفة الوضعية، غير أنه يهتم أكثر بالفهم وإمكان التفسير.

3-2-1 الوضعية فى علم الاجتماع

يتجه الباحث الاجتماعى فى إطار الوضعية إلى أن يطبق أساليب البحث التى تطبق فى العلوم الطبيعية، كى لا يتأثر بحثه بميوله أو معتقداته الشخصية. كان هذا ما يدعو إليه ماكس ويبر، لكن المحاولة قد لا تنجح، لأن الباحث يتأثر لدرجة أو أخرى بمعتقداته وميوله، عند اختيار موضوع البحث أو اختيار الأسئلة التى يجمع بها معلوماته على الأقل. وصحيح أن على الباحث أن يعلن عن ميوله ليكون القارئ على بينة، ولكن حتى هذا لا يضمن عدم التحيز.

فى البحوث المعملية لا يتأثر الباحث بما يجرى فى معمله وفى أنابيب الاختبار التى يجرى فيها التفاعل. لكن الأمر يختلف بالنسبة للباحث الاجتماعى، فمعمله هو المجتمع، وهو نفسه جزء من ذلك المجتمع، وإذا شبهنا تجربته بأنبوبة اختبار، فهو يوجد بشخصه داخل أنبوبة الاختبار. ولهذا لا يستطيع أن يكون مستقلا لا يتأثر أو يؤثر فى التفاعل. ولا يستطيع فى

وضع كهذا أن يتحكم تماما فى تأثير معتقداته وميوله، بل ربما لا يرى تأثيرها على بحثه. ولهذا لا يمكن استخدام أساليب العلوم الطبيعية فى دراسة المجتمع.

يجب أيضا أن نرى بوضوح أن مكونات الطبيعة لا عقل لها، ولهذا تتكرر حركتها بنفس الصورة فى كل مرة، ولهذا أيضا يمكن التنبؤ بحركتها بدقة، مثال ذلك حركة الكواكب والتفاعلات الكيميائية. وحين يتعلق الأمر بالكائن الإنسانى يختلف الحال، فالإنسان له عقله الخاص، ولا يتساوى تماما رد فعل شخصين بشريين تجاه نفس الفعل، وأقصى ما يمكن التنبؤ به سلوك فئات أو جماعات من الناس. والسبب فى ذلك أن ردود أفعال الأفراد تختلف فى اتجاهات متباينة بحيث يكاد يتلاشى تأثيرها إذا كان عدد الأفراد كبيرا. ونقول يكاد يتلاشى، لأنه لا يتلاشى تماما، ولهذا يل التنبؤ فى هذه الحالة تقريبيا لدرجة أو أخرى.

من جانب آخر، يستجيب الناس للمؤثرات التى تقع فى محيطهم بطرق مختلفة، ولا يعرف الباحث كيف تفاعلوا معه وما إذا كانت إجاباتهم عن أسئلته تعبر تماما عن الحقيقة. وربما يغضبون لوجوده ويرفضون التعاون معه والإجابة عن أسئلته. وفضلا عن ذلك، تتغير الأنماط الاجتماعية باستمرار، بعكس قوانين الطبيعة التى تبقى ثابتة. لهذا فإن ما يكون صحيحا بالنسبة للمجتمع فى لحظة أو مكان معين قد لا يكون صحيحا فى لحظة أو مكان آخر. ومن هنا تركز بعض البحوث الاجتماعية الهامة على التنوع والتغير الاجتماعى.

يظل هناك سبب إضافى لاختلاف السلوك الإنسانى عن سلوك المكونات الطبيعية، وهو أن الإنسان كائن رمزى وذاتى، فهو يصنع بعقله معانى لكل

شئ حوله. وهو بهذا يصنع لنفسه عالما رمزيا، لا يستطيع الباحث الاجتماعى أن يدرسه من خارجه، ولابد له أن يخترق ذلك العالم الرمزى الخاص للكائن البشرى الذى يحاول دراسته. ولا يجد الباحثون هنا وسيلة لاكتشاف تحيزاتهم، سوى أن يكرروا بحث نفس الموضوعات بنفس الأساليب، فإذا تكرر التوصل إلى نفس النتائج التى سبق التوصل إليها فهذا يشير إلى موضوعيتها.

هكذا لا تتوقف الموضوعية فى دراسة المجتمع على منطق العلم ومنهجيته، فبهذا المنطق وتلك المنهجية يتيح العلم طرقا للحصول على المعرفة، لكنه لا يقدم لنا معرفة لحقيقة مطلقة. وباتباع طرق المعرفة التى يتيحها العلم، يمكن للعملية العلمية أن تصحح نفسها، ويمكن للباحثين أن يتغلبوا على تحيزاتهم، فى الأجل الطويل.

3-2-2 الوجهة الإنسانية

سبق القول بأن المعرفة الإنسانية نظام يرتكز على فهم المعانى، وهى لهذا تتسم بطابع ذاتى، والذاتية مصدر تحيزات وأخطاء ينبغى تجنبها قدر الإمكان. لكن هناك جانبا طيبا لهذه الذاتية، لأنها مصدر تفكير إبداعى، والتفكير الإبداعى هام جدا فى البحث الاجتماعى. والمسألة أن البحث الاجتماعى الجيد لا يستند فقط إلى أساليب البحث العلمى، بل يحتاج أيضا إلى قدر من الخيال المبدع. وهذا مطلوب أيضا فى البحوث الطبيعية لكنه فى البحوث الاجتماعية يتخذ طابعا متميزا بصفة خاصة.

يمكن بالأساليب العلمية جمع معلومات عن الدوافع والمشاعر الإنسانية كالطمع والحب واليأس وغير ذلك، لكن تلك الأساليب لا تجعلنا نحيط بجميع

المعانى التى ترتبط بسلوك الإنسان إحاطة تامة. ويمكن بالأساليب العلمية تحليل البيانات، ويبقى أن النتائج والأرقام فى البحوث الاجتماعية لا تشرح نفسها، بل تحتاج من الباحث أن يشرحها ويضفى عليها معانى بملاحظاته. وفى هذا الإطار، يكتسب علم الاجتماع سمات منها أنه يهتم بالذاتية والإبداع الإنسانى، فمن خلال الإبداع يواجه الأفراد القيود الاجتماعية ويعيدون تشكيل عالمهم الاجتماعى.

فى هذا الإطار أيضا يهتم علم الاجتماع بالخبرة الإنسانية، فيهتم بأحاديث الناس ومشاعرهم وأفعالهم، كجزء فاعل فى النظام الاجتماعى والاقتصادى، لأن هذا النظام لا يبنى فقط على التكوين البيولوجى الطبيعى للإنمسان. ولا يبتعد الباحث الاجتماعى فى هذه الحالة عن تلك الأحاديث والمشاعر والأفعال، كخبرات يصفها من بعيد بشكل مجرد، بل يكون على صلة وثيقة بها ويشارك فيها. وهذا يعنى أن يكون واعيا بدوره الأخلاقى والسياسى، فى بناء عالم أقل قهرا واستغلالا وظلما. ولا يوجد علم إنسانى بدون هذه السمات كحد أدنى.

3-3 توجهات أخرى

ليس الأمر ببساطة مجرد وجود توجهين وضعى وإنسانى فى علم الاجتماع، فهناك توجهات أخرى. توجد أيضا توجهات واقعية، وأخرى ناقدة، وغيرها موقفية، كما يوجد توجه الارتياب الذى يشك فى كل شئ ويضع كل شئ موضع تساؤل، وكذلك توجد توجهات ما بعد الحداثة (ماكيونيس وبلامر Macionis and Plummer: 57-59).

الواقعية نظام من المفاهيم النظرية تعالج موضوعا معينا، كدراسة كيف يعمل النظام الاقتصادى أو كيف يعمل العقل على سبيل المثال. وقد يعتمد البحث الواقعى على الاستدلال التجريبى، لكن هذا لا يمثل شيئا أساسيا بالنسبة له. وخير مثال لذلك تحليل ماركس، فهو لم يعتمد بدرجة أساسية على جمع البيانات من الناس وتحليلها، لكنه اهتم بفهم نمط الإنتاج من خلال فهم كيفية تنظيم المجتمع لعمليات إنتاج السلع والخدمات، واعتمد على ذلك لفهم عمل النظام الاجتماعى وتطوره.

أما علم الاجتماع الناقد، فقد كان رد فعل للعلم الوضعى، وكان من إلهام ماركس. وهو يرفض فكرة أن المجتمع نظام طبيعى يمكن اكتشافه. ولا يرى الاجتماعيون الناقدون أن المجتمع يجب فهمه فقط بل يجب فى النهاية تغييره، وأن مهمة علم الاجتماع كشف ما يحدث وربط المعرفة بالأفعال. وفى هذا الإطار يرى علم الاجتماع الناقد أن الكائن الإنسانى كائن رشيد حر الفكر، لكن مؤسسات المجتمع تغير ذلك كله. وينتهى الحال بهذا العلم الناقد أن يعمل على هدم الإيديولوجيات والعقائد السائدة فى المجتمع.

من جانب آخر، تقول النظرية الموقفية، أن الخبرة بموقف معين هى مصدر المعرفة عن ذلك الموقف، وأن المعرفة الناتجة من الخبرة المباشرة هى وسيلة الجماعات لحل مشكلاتها. وما يبدو الآن أنه حقائق يقدمها علم الاجتماع، ما هو إلا نتاج تحليل باحثين من نوعية خاصة، فهم رجال بيض من ذوى التوجه الجنسى المتعدد. لكن هناك مواقف أخرى، كموقف المثليين والمثليات، ومواقف النساء فى مختلف المجتمعات، وكذلك مواقف السود ومواقف فئات أخرى كثيرة. من الموضع الذى توجد فيه أى من تلك الفئات نفهم المزيد عن المجتمع، وندرك حقائق تختفى عن الرؤية عند النظر إلى

المجتمع من موضع فئة معينة.

هذا بينما تقول نظرية الريبة، أن معظم ما تقوله النظريات الاجتماعية جرت صياغته من وجهة نظر رجال ذوى توجه جنسى متعدد. وأن النظر إلى الأمور يتغير جوهريا من وجهة جماعة "المرتابين" Queers. سوف يتغير كل ما نعرفه عن الدين لو أعدنا النظر فيه من وجهة نظر المثليين أو المثليات، ويتغير ما نعرفه عن الاقتصاد لو بحثناه منزاوية قدرة المثليين على الإنفاق (ما يسمى الاقتصاد القرمزى Pink)، وكذلك يتغير ما نعرفه عن التقسيم الطبقى أو العنصرية أو غير ذلك، وهذا النهج شبيه بنهج النظرية الموقفية.

الآن يمكن القول بصفة عامة أن أى بحث عن حقيقة علمية مطلقة، كما هو الحال فى الوضعية، كان جزءا من التنوير العلمى. وهذا منطق مرفوض فى ضوء تطور منهجية ما بعد الحداثة، ففى هذه المنهجية تعتبر الحقيقة نسبية ومجزأة ومتغيرة. وما يبدو حقيقيا ما هو إلا فهم خاص وعملية تركيب يصنعها الفرد، بمعنى أنه حقيقة ذاتية تبنى على دور اللغة والدوافع فى تكوين الآراء والعقائد. وهكذا يكون زمن البحث عن حقيقة واحدة كبيرة قد انتهى، وتكون المعارف التى نبحث عنها ناتجة عن مواقف محددة. وهذا الجدل ليس أمرا استثنائيا فقد كان هناك دائما جدل حول طبيعة علم الاجتماع، وما يحدث الآن هو استمرار فقط للجدل.

3-4 المفاهيم والمتغيرات

المفهوم هو مكون عقلى يمثل جزءا من المعرفة فى صيغة مبسطة. مثال ذلك مفهاهيم المجتمع والأسرة والطبقة وغير ذلك. ويستخدم علم الاجتماع

مفاهيم تعبر عن موضوعات اهتمامه مثلما تستخدم سائر العلوم ما يخصها من مفاهيم. أما المتغير فهو مفهوم تتغير قيمته من حالة لحالة. وتقاس قيم المتغيرات فى حالة معينة. وبعض المتغيرات سهلة القياس مثل كل ما يقاس بقيمته المالية كالدخل والأسعار. ولكن كثيرا من المتغيرات الاجتماعية صعبة القياس، ومثال ذلك قياس الطبقة الاجتماعية، فهنا نواجه عملية مركبة، تحتاج أن نحدد أولا مفهوم الطبقة، ثم نحدد العناصر التى يمكن أن تستخدم لقياسها، وما ينطبق من هذه العناصر على حالة كل فرد.

عموما هنا عدة ملاحظات تتعلق بالقياس.

- لا توجد طريقة واحدة لقياس أى متغير، وفى حالة الطبقة مثلا، قد يستخدم الدخل مقياسا، لكنه لا يكفى لأن مصدر الدخل لا يقل أهمية عن مقدار الدخل ذاته. فالدخل المرتفع قد يكون من عمل مهنى كالمحاماة أو الطب، وقد يكون من عمل صناعى أو بنكى، أو من أعمال السمسرة. وقد يكون دخل بعض الحرفيين أعلى من دخل أستاذة الجامعة وبعض المهنيين. ولهذا نأخذ فى اعتبارنا أيضا مستوى التعليم المقترن بمستوى الدخل. وعلى هذا الأساس يمكن أن نبنى مقياسا مركبا من أكثر من عنصر لقياس الطبقة.
- يلزم أيضا ما نسميه التعريف الإجرائى، وهو أن نشرح كيف نقيس كل متغير، فلا يكفى أن نشرح المفهوم النظرى لمتغيراتنا، ولا بد أن نعرف كيف نقيسها. وإذا كان المتغير يقاس بمجموعة من العناصر كما هو الحال عند قياس الطبقة، فسيلزم تعريف طريقة قياس كل عنصر، ووصف كيفية وضع العناصر معا فى مقياس مركب. يدون هذا يكون من الصعب تقدير قيمة البحث أو أهميته، كما يكون من الصعب فهم نتائجه فهما

دقيقا وكاملا.

- عند قياس أى متغير يكون لدينا قياس لكل فرد من عينة البحث، وسيكون لدينا فى هذه الحالة أرقام كثيرة يصعب فهم مغزاها. لذلك نلجأ للعمليات الإحصائية لتكون لدينا صورة كلية. بهذا يمكننا مقارنة مجموعات من الحالات بدلا من مقارنة الحالات الفردية. ومن أكثر الأساليب الإحصائية استخداما بيان النسب والمتوسطات، وبيان الفروق بين المتوسطات وتقدير أهمية تلك النسب والفروق. وتتدرج الأساليب الإحصائية فى تعقيدها ولنا أن نختار منها ما يناسب البحث.
- من المهم ونحن نجمع بيانات عن المتغيرات، أن نحصل على قياسات ثابتة وصادقة، وهو ما نسميه الثبات والصدق. ويكون القياس ثابتا إذا كان بوسعنا أن نحصل على نفس النتيجة لو أعدنا القياس. هذا قياس ثابت يمكن الاعتماد عليه، لكنه غير كاف للحصول على نتائج دقيقة، فمن اللازم أيضا أن يكون صادقا، بمعنى أن يقيس فعلا ما نريد أن نقيسه. على سبيل المثال قد نقيس التدين بالانتظام فى الصلوات، لكننا حينئذ نقيس شيئا آخر غير التدين، إذ نقيس عدد مرات الصلاة كما يؤديها كل شخص، أو مواعيد أدائه للصلاة وهل يؤديها فى وقتها أو فى وقت متأخر. وسيختلف ذلك عما لو قسنا أسلوب التعامل مع الناس أو الالتزام بالواجبات الأخلاقية. ويتوقف الأمر إذن على مفهومنا عن التدين، وتعريفنا الإجرائى له.

3-5 العلاقات بين المتغيرات

النموذج العلمى فى العلاقة بين المتغيرات هو نموذج السبب والنتيجة. فحدوث تغير ما فى أحد المتغيرات ينتج عن تأثره بمتغير آخر. مثال ذلك أن تجتهد فى فهم دروسك فتحقق نتيجة طيبة فى الامتحان. هنا نعرف أن الاجتهاد كان سب النجاح، ونعتبر الاجتهاد متغيرا مستقلا، والنجاح متغيرا تابعا، لأن تغير الأول ينتج عنه تغير الثانى. وهكذا يكون لدينا سبب ونتيجة. ونحن كباحثين نهتم بذلك لأننا بمعرفة تلك العلاقة يمكننا التنبؤ بما سيحدث، فنستخدم ما نعرفه للتنبؤ بما لا نعرفه.

نتوقف قليلا عند ارتباط المتغيرات، فقد يوجد ارتباط قوى لا يعكس علاقة سببية. مثال ذلك الارتباط بين وجود العشوائيات وبين الجريمة. نجد أنه بزيادة سكان العشوائيات تزداد أعداد الجرائم التى يرتكبها أفراد يقيمون هناك. لكننا لا نستنتج أن الإقامة فى المناطق العشوائية تدفع المقيمين بها إلى ارتكاب الجرائم. وزيادة الجريمة هنا زيادة عددية مرتبطة بزيادة عدد السكان فى تلك المناطق. وقد تزيد نسبة الجرائم هنا عن نسبتها بين سكان المناطق غير العشوائية، ويظل هذا أيضا مجرد ارتباط وليس علاقة سببية. وازدياد نسبة الجريمة فى هذه الحالة له أسباب أخرى يجب البحث عنها.

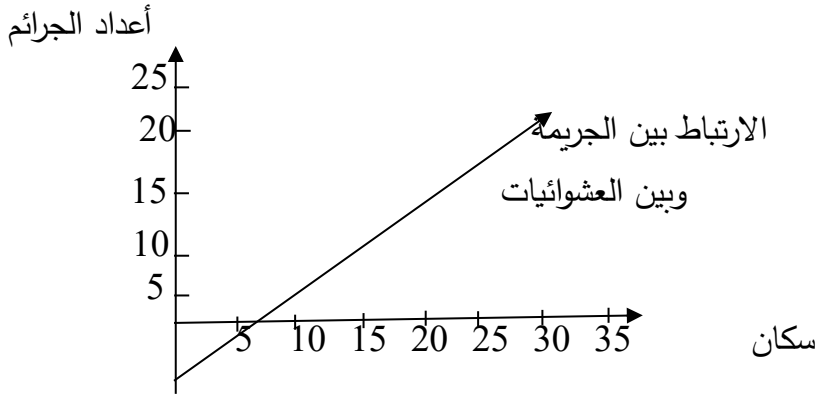

العشوائيات

الشكل رقم (1)

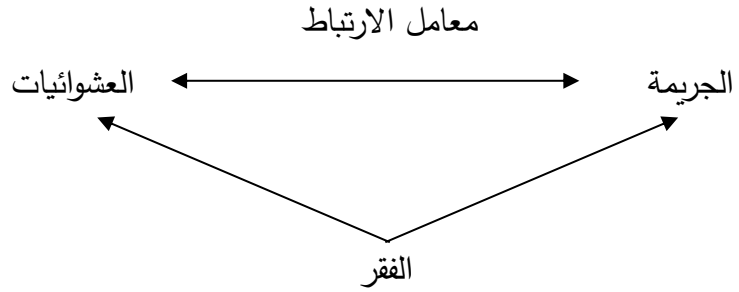

الشكل رقم (2)

لا يكفى الارتباط إذن لكى نقول أن الإقامة فى العشوائيات هى سبب الجريمة، فقد يوجد متغير ثالث يؤثر فى كلا المتغيرين فى آن واحد، ويكون هذا هو سبب ظهور الارتباط بينهما. وقد يكون الفقر هو المتغير الثالث، فزيادة الفقر تزيد سكان العشوائيات، وتزيد نسبة الفقراء فى تلك المناطق. وفى الوقت ذاته تزداد الجريمة بازدياد الفقر. ولكى نكتشف ذلك يجب أن ندخل فى التحليل هذا المتغير الثالث، وليكن ذلك قياسا بمستوى الدخل. وحينئذ سوف يختفى الارتباط الذى سبق أن شاهدناه. (قارن الشكل رقم 1، والشكل رقم 2).

هكذا يتحدد الارتباط بأن متغيرين أو أكثر يتغيران معا، أما فى العلاقة السببية فيجب أن تتوفر شرطان آخران. الشرط الأول أن يتغير أحد المتغيرات أولا قبل المتغيرات الأخرى. والشرط الثانى ألا يكون هناك دليل على وجود متغير ثالث يحدث أثره على تلك المتغيرات. وللتحقق من تأثير المتغير الثالث، يمكن تحييد أثر أحد المتغيرات الثلاثة. وفى المثال السابق يتم تحييد أثر

متغير الدخل، باختيار عينة من أفراد لهم نفس مستوى الدخل، ويقيم بعضهم فى مناطق عشوائية وبعضهم فى مناطق غير عشوائية، فإذا وجدنا أن نسبة الجريمة أعلى فى العشوائيات فسيكون هذا استدلالا كافيا على أن الإقامة فى العشوائيات تدفع إلى الجريمة.

بالتحكم فى المتغيرات إذن يكون من السهل إثبات العلاقة السببية، وهذا واضح فى بحوث العلوم الطبيعية حيث يمكن التحكم فى كثير من المتغيرات داخل المعمل التى تجرى فيه التجربة. أما فى البحوث الاجتماعية فالأمر يختلف، لأن من الصعب التحكم فى المتغيرات بنفس القدر، حيث أن سلوك الكائن البشرى أكثر تعقيدا ويتعرض لتأثير عدد كبير من المتغيرات السببية فى وقت واحد.

3-6 اختيار العينة

فى أى دراسة اجتماعية لبحث مشكلة معينة، يكون لدينا ما نسميه مجتمع البحث، ويتحدد مجتمع البحث بمجموع أفراد الفئة التى تجرى دراستها. إذا كنا نجرى دراسة عن المجتمع المصرى فمجتمع العينة هو جميع المصريين سواء منهم من يقيم فى مصر أو خارجها. وإذا كان البحث عن الإناث فى عمر المدرسة، فسيكون مجتمع العينة هو جميع الإناث فى عمر 6-18 سنة. وإذا كان بحثا عن الطلبة الجامعيين فسيكون مجتمع البحث هو كل طلاب الجامعات، وإذا كان عن طلبة جامعة معينة فمجتمع البحث هو جميع طلاب تلك الجامعة، وهكذا.

فى هذه الدراسات لا يمكن أن يخضع للدراسة جميع أفراد مجتمع البحث،

لأن الأعداد ستكون كبيرة ويكون البحث باهظ التكلفة. وما يحدث عادة هو اختيار عدد قليل من الأفراد يمثلون ذلك المجتمع، ويسمى مجتمع البحث فى هذه الحالة إطار العينة، أى الإطار الذى يتم اختيار العينة فى حدوده. وبقدر ما تكون العينة ممثلة للمجتمع تمثيلا حقيقيا، ستكون نتائج البحث معبرة عن ذلك المجتمع. ولا تجرى دراسات تشمل جميع أفراد المجتمع سوى تعدادات السكان، وهذه التعدادات تجريها الدولة، ونظرا لارتفاع تكلفتها وطول الوقت وضخامة الجهد الذى تتطلبه، فالمعتاد أن تجرى كل عشر سنوات.

كيف تكون العينة ممثلة للمجتمع؟ هنا نوعان من العينات، عينة احتمالية وعينة غير احتمالية. والنوع الأول يتم فيه اختيار أفراد العينة على أساس نظرية الاحتمالات، وهذا يعنى أن يكون الاختيار بطريقة عشوائية، لكى تتساوى فرصة الاختيار ضمن العينة لأى فرد من أفراد المجتمع. وبلغة الاحتمالات نقول أن احتمال اختيار أى فرد من المجتمع يساوى احتمال اختيار أى فرد آخر. وتوجد استراتيجيات للاختيار على هذا الأساس، فقد يتم عمل قائمة بجميع أفراد المجتمع (يسمى إطار العينة)، ثم يتم الاختيار من القائمة بطريقة مناسبة، كاختيار الفرد الأول من كل عشرة أفراد أو كل مائة فرد مثلا.

فى بحث عن المجتمع بأكمله أو عن فئة اجتماعية كبيرة العدد، بحيث يتعذر إعداد مثل تلك القائمة، يمكن عمل قوائم من نوع آخر، فيقسم المجتمع إلى أقسام متماثلة قدر الإمكان، قد تكون مناطق جغرافية، ويتم اختيار منطقة تمثل كل نوع المناطق بطريقة عشوائية. ويعاد تقسيم المنطقة المختارة إلى مناطق أصغر واختيار وحدات ممثلة لتلك المناطق الفرعية. وحين يكون قد تم اختيار مناطق صغيرة كعدد من المدن والقرى، يمكن تقسيم المدينة أو

القرية إلى مربعات وشوارع نختار منها مربعات أو شوارع بطريقة عشوائية، وفى النهاية نختار من الشوارع منازل معينة، فنختار عشوائيا كل خامس بيت أو كل عاشر بيت وهكذا.

ليس صحيحا أنه يمكن اختيار عينة ممثلة للمجتمع بمجرد الوقوف فى الشارع وتوجيه الأسئلة إلى أفراد لا نعرفهم حتى لو وقع اختيارنا عليهم بطريقة عشوائية. والسبب فى ذلك أن الشارع الذى نقف فيه قد لا يمر به كل فئات الناس. وبنفس الدرجة لن يكون اختيارنا ممثلا للمجتمع لو اخترنا شوارع مختلفة أو مدنا مختلفة، دون أن نعرف عدد كل من أنواع الشوارع لنختار واحدا من كل نوع، ودون أن نعرف أعداد المدن أو القرى المتماثلة لنختار منها ما يمثل كل نوع. هذا يجعل العينة غير ممثلة للمجتمع ويؤثر على نتيجة البحث فى النهاية.

نلجأ إلى النوع الآخر من العينات وهو العينة غير الاحتمالية، ونسميها العينة العمدية إذا كنا لا نحتاج إلى عينة عشوائية ممثلة للمجتمع، أو إذا كان من المتعذر حصر مجتمع العينة. ويتم اختيار العينة فى هذه الحالة بطرق مختلفة، فإذا كنا لا نحتاج إلى عينة ممثلة للمجتمع، فقد نختار بصورة متعمدة أعدادا معينة من كل فئة من المجتمع. فإذا كان هناك أعداد متساوية من الذكور والإناث فقد نختار عمديا أعدادا متساوية من الذكور والإناث. وإذا كنا نريد مزيجا عمريا فقد نختار أعدادا متناسبة مع أعداد الأفراد المنتمين لكل فئة عمرية. وهكذا نختار عينة لا تمثل المجتمع لكنها تمكننا من دراسة موضوعات معينة.

نختار مرة أخرى عينة غير ممثلة إذا كان من المتعذر تحديد كل أفراد المجتمع والاختيار العشوائى من بينهم. مثال ذلك دراسة موضوعات حساسة

كتعاطى المخدرات أو إدمانها، أو دراسة سلوكيات جنسية معينة. لهذا الغرض يمكننا اختيار أى فرد يمكن التعرف عليه من أفراد ذلك المجتمع المستهدف، ويمكن أن نطلب منه بعد ذلك أن يوصلنا إلى أفراد آخرين من نفس المجتمع. وتحت هذه الشروط نجرى ما يسمى دراسة الحالة. والنتيجة لن تعبر تماما عن مجتمع البحث لكنها ستوصلنا إلى معارف هامة حول الموضوع.

تمثل دراسة الحالة نوعا من الدراسات التى نسميها الدراسات الكيفية qualitative، وهى تعطينا معلومات نوعية عن الموضوع أو فئة البحث. فى المقابل تسمى الدراسات التى تعتمد على المسح بالعينة دراسات كمية quantitative، لأنها تعطينا معلومات كمية أى رقمية. ولا نحصل من الدراسات الكيفية على تقديرات لنسب انتشار خصائص أو سلوكيات معينة فى المجتمع أو توزيعها حسب نوع الأفراد أو أعمارهم أو تواجدهم الجغرافى، أو أى معلومات كمية أخرى. لكننا نحصل على مثل تلك المعلومات من الدراسات الكمية. وتتميز الدراسات الكيفية بأنها دراسات متعمقة.

ثمة أنواع أخرى من الدراسات الكيفية[9] مثل تحليل المضمون، وهو تكنيك يستخدم لاستخلاص المعانى التى تتضمنها النصوص اللغوية. وفى هذا النوع من التحليل يمكن استخدام بعض الأساليب الكمية أيضا. وقد كان المعروف أن دراسات كيفية كدراسة الحالة لا يمكن تعميم نتائجها وإن كانت تعطينا معلومات كثيرة، نظرا لصغر حجم العينة بحيث لا تمثل المجتمع. وكان يتم اللجوء بعد إجرائها إلى دراسة كمية باستخدام عينات أكبر. ولكن هناك الآن من يقول أنها يمكن تعميم نتائجها بشروط معينة (فليفبرج Flyvbierg، 2006).

[9] للمزيد عن الدراسات الكيفية أنظر دنزين ولنكولن Denzin and Lincoln، 2000

فى النهاية، أيا كان نوع العينة وحجمها، فهى توفر وقت البحث وتقلل تكلفته. ولو لم تقدم معلومات بالغة الدقة عن المجتمع. وينطبق ذلك أيضا على الدراسة بالعينة ولو كانت العينة كبيرة وممثلة للمجتمع، فحتى هذه الدرسات لا تقدم معلومات بالغة الدقة وإنما تقدم معلومات احتمالية. لكن جميع الدراسات باستخدام أى نوع من العينات، يقدم معلومات مفيدة، وبمزيد من بحوث الحالة أو بحوث العينة تزداد الفائدة وتتسع المعلومات وتزداد دقتها عبر الزمن.

3-7 أدوات البحث الاجتماعى

أداة البحث الاجتماعى هى أسلوب فنى منهجى لإجراء البحث. وأكثر الأدوات استخداما هى التجربة، والمسح، والملاحظة عن طريق المشاركة، والتحليل الثانوى أو التاريخى. وبخلاف هذه الأدوات الرئيسية توجد أدوات أخرى تطور استخدامها حديثا، وتتعدد أنواعها ومنها تحليل قصص الحياة والسير الذاتية، والخطابات والأدوات المرئية كالصور الفوتوجرافية والفيديو والأفلام السينمائية.

1-7-3 التجربة

التجربة هى أسلوب البحث المعتاد فى العلوم الطبيعية وهى تجرى للتحقق من علاقة سببية بين متغيرين، وهى بالتالى لا تقول فقط ماذا يحدث فى ظرف ما، بل تقول أيضا لماذا يحدث. ومن النادر إجراء بحوث اجتماعية

بهذا الأسلوب ولكنه يستخدم فى علم النفس وعلم النفس الاجتماعى[10]، لاختبار فرض معين. والفرض هو بيان لسنا متأكدين من صحته، ويتم اختبار صحته فى خطوات محددة، حيث يتم قياس المتغير التابع، ثم تجرى التجربة بإدخال تأثير المتغير المستقل، وبعد ذلك نعيد قياس المتغير التابع للتحقق مما إذا كان قد تأثر فعلا، ويكون الفرض مرفوضا إذا كان لم يتأثر.

3-7-2 المسح

المسح أسلوب بحثى يجيب المبحوثون فيه عن عدد من التساؤلات خلال مقابلة أو من خلال استبيان. ويصلح هذا الأسلوب لدراسة علاقات سببية، لكنه ينتج غالبا نتائج وصفية، تبين اتجاهات المبحوثين التى لا يمكن ملاحظتها بصورة مباشرة. ويشمل ذلك اتجاهاتهم السياسية والدينية والعنصرية وغير ذلك. والأسئلة التى يبوجهها الباحث إلى المبحوثين فى المقابلة، قد يكون بعضها مغلقا بمعنى أن يقدم الباحث أيضا مجموعة إجابات محتملة يختار منها المبحوث ما يراه منطبقا عليه. وقد يكون السؤال مفتوحا، يجيب عنه المبحوث بما يراه، ويتبع ذلك أسئلة أخرى تبنى على إجاباته. وتسمى هذه المقابلة مقابلة رسمية.

هناك أيضا مقابلة غير رسمية، تتخذ صيغة مناقشة بين الباحث والمبحوث، تقودها أفكار محددة تمثل دليلا للمناقشة. وفى إطار هذا الدليل يوجه الباحث أسئلته ويناقش بحرية ليتعمق فى معرفة اتجاهات المبحوث، وتدور المناقشة فى جو ودى على أساس التكافؤ بين الطرفين كما يحدث بين

[10] يمكن التعرف على أمثلة للتجارب البحثية بالرجوع إلى روبرت براون (1987)

الأصدقاء. ويستخدم هذا الأسلوب فى الدراسات المتعمقة وفى دراسة الحالة، ويستخدم أيضا لدراسة الموضوعات الحساسة. والمعتاد أن يتم تسجيل المحادثة، ولكن هذا يرتب بالنسبة للباحث أن يتعامل مع كمية كبيرة من المعلومات غير المرتبة وقد يكون من الصعب تحليل بعضها.

قد يستخدم فى المقابلات أيضا أسلوب الاستبيان، وهو مجموعة أسئلة مكتوبة، نطلب من المبحوثين الإجابة عليها، وقد تكون الأسئلة مغلقة أو مفتوحة. والسؤال المغلق توضع له إجابات محددة يختار منها المبحوث ما يناسبه. وهذا يسهل عمل الباحث، لوجود عدد محدود من الإجابات التى يلزم تحليلها. أما فى السؤال المفتوح فيترك للمبحوث أن يجيب بحرية دون أن يتقيد بالاختيار من بين إجابات يقترحها الاستبيان. ويترتب على هذا وجود عدد كبير من الإجابات يقوم الباحث بتصنيفها، وقد يكون بعضها محيرا يصعب تصنيفه.

فيما يتعلق بالاستبيان، قد يستخدم استبيان مقنن، وهذا النوع أقرب لأن يكون اختبارا. وهو مقنن لأنه عند تصميمه تجرى تجربته على عينات مختلفة لقياس اتجاهات أو صفات أو خصائص محددة هى التى يتم إعداد الاستبيان لقياسها. وبناء على تلك التجارب يتم تعديل الأسئلة لتأكيد ثباتها وصدقها، وتكون بذلك صالحة للاستخدام فى مجتمع واسع نسبيا. وهذا النوع من الاستبيانات يصممه خبراء متمرسون ويستخدمون لتقنينه أساليب إحصائية مناسبة.

3-7-3 الملاحظة بالمشاركة

يستخدم هذا الأسلوب لدراسة الجماعات من خلال ملاحظتها عن قرب بالمشاركة فى أنشطتها. وهذا هو أكثر الأساليب استخداما وأكثرها ملاءمة للدراسات الإنسانية. وهو يسمح بفهم الحياة الاجتماعية فى أماكن كالنوادى الليلية والجماعات الدينية. ويستخدمه الأنثروبولوجيون لدراسة الجماعات ذات الثقافات غير المألوفة بالنسبة لهم، ويسمون تلك الثقافات إثنولوجية، ويسمون دراساتها دراسات حالة. وفى تلك الدراسات لا يكون لدى الباحث الاجتماعى سوى معلومات سطحية عن الجماعة التى يريد دراستها، ولهذا يكون معظم تلك الدراسات استطلاعيا، وغالبا ما تكون دراسات وصفية.

لا يتقيد الباحث فى هذا النوع من الدراسات، بالقواعد الثابتة التى يتقيد بها فى التجربة أو المسح، وبهذه الحرية يستطيع أن يتعامل مع ما ليس مألوفا ويتواءم مع ما هو غير متوقع. وقد تتطلب الدراسة أن يبقى فى عمله الميدان هذا لفترات طويلة، تمتد لشهور وقد تمتد لسنين. وبينما يشارك الباحث فى أنشطة الجماعة، يتعين عليه أن يبتعد أو يخلو إلى نفسه من حين لآخر، ليسجل ملاحظاته ويستوعب الموضوع. وهو يلعب إذن دورين مختلفين، دور المشارك ودور المراقب، وفى هذا الدور الأخير يكون منفصلا عن الجماعة.

هذا نوع من الدراسات الكيفية، لا يقدم معلومات أو قياسات كمية عن موضوع البحث، ولهذا قد يقال أنها دراسات انطباعية وليست علمية. ويقال أيضا أنها ليست دقيقة، وتعتمد على تفسير شخص واحد هو الباحث حيث يقوم وحده بإجراء الدراسة. لكن دقة الدراسات الكيفية قد زادت، وما فيها من انطباعية يعتبر ميزة تفيد الباحث المدقق فى الاستبصار بطبيعة الحياة اليومية، مما لا تقيسه البيانات الكمية. ومن ناحية أخرى لا يخلو البحث الرسمى من عيوب، فكثيرا ما يؤدى المسح أو المقابلة إلى تغير الظروف

الطبيعية للحياة اليومية لدى المبحوثين، وتختفى بذلك تفاصيل هامة لا يتمكن الباحثون من رصدها.

3-7-4 التحليل الثانوى والتاريخى

فى هذا النوع من التحليل لا يستخدم الباحث بيانات يجمعها بنفسه وبأدواته، ويستخدم بدلا من ذلك بيانات جمعها آخرون. قد تكون البيانات فى هذه الحالة إحصاءات حكومية أو بيانات لدى منظمات دولية، أو بيانات من دراسات سبق أن أجراها باحثون آخرون. وهذا يوفر للباحث وقتا ويقلل تكلفة البحث، لكنه قد لا يتيح فرصا للمقارنة بين حالات مختلفة، وقد لا تحتوى البيانات على تفاصيل المعلومات التى يريدها الباحث. وقد تكون الإحصاءات الحكومية والإحصاءات المتاحة لدى المنظمات الدولية أفضل من أى بيانات يجمعها الباحث بنفسه، من حيث الدقة وحجم المجتمع الذى تغطيه، لكنها بهذه الدقة والشمول قد لا تجيب على تساؤلات الباحث فى موضوع بحثه، وقد يكون تعريف الوقائع فيها غير واضح. وعلى سبيل المثال، قد تسجل بعض حالات وفاة المرضى كأنها ناتجة عن المرض فى حين أنها قد تكون نتيجة الإهمال أو نتيجة عدوى داخل المستشفى أو نتيجة خطأ آخر لم يكتشف.

3-7-5 الأدوات الجديدة

يكتب ملايين الناس عن حياتهم بصور مختلفة. ثمة من يكتب سيرة حياته ومن يكتب مذكرات عما عاصره من أحداث. وثمة من يسجل ذكرياته أو يحتفظ بها فى صورة ألبومات صور. ويكتب كثيرون خطابات لأصدقائهم

ولغير أصدقائهم، ويبعثون برسائل إلى الصحف ويكتبون شكاوى لجهات مختلفة، ويسجلون بالفيديو حفلات عائلية أو غير عائلية. وهذه كلها وثائق اجتماعية يمكن تحليلها، ويمكن أن توضع جميعها تحت عنوان "وثائق الحياة".

تختلف سيرة الحياة عن المذكرات، فى أن الأخيرة لا تتناول بالضرورة حياة من يكتبها بل تتناول ما عاصره وشاهده من أحداث. وبينما تكون سيرة الحياة سجلا زمنيا لتطورات أحداث العمر مما جرى فى حياة كاتبها، تكون المذكرات سجلا للحظات زمنية، عاشها الشخص أو عاصرها، وقد تشتمل على ما يمس حياته فيما يخجل من الحديث عنه، وقد يسجل البعض مذكراتهم لأغراض التحليل العلمى بناء على طلب الباحث.

فى دراسات عن كيفية استخدام الوقت فى الأغراض المختلفة، كان بعض الباحثين (سوروكين و بيرجر Sorokin and Berger ، 1938؛ أيضا أوسكار لويس Oscar Lewis، 1959) بعد التعرف على شخصيات المبحوثين وقضاء وقت طويل معهم فى مناقشات ومشاركة، يطلبون من كل مبحوث تسجيل توقيت كل عمل أداه خلال يوم كامل من حياته المعتادة. وبهذا السجل المصغر يمكن إجراء تحليل مكثف لأنماط الحياة، وإجراء مقارنات بين تلك الأنماط، كما يمكن إجراء دراسات كيفية عنها بنظرة كلية.

كان من النادر استخدام الخطابات كمصدر للبيانات، لكن دراسة شهيرة أجراها توماس و زنانيكى Thomas and Znaniecki (1959)، عن عدد من أسر الفلاحين المهاجرين من بولندا إلى الولايات المتحدة الأمريكية، استخدمت ذلك المصدر، مثلما استخدمت سجل يوم من حياة كل أسرة. وتوجد دراسة شهيرة أخرى استخدمت الخطابات أيضا كمصدر للبيانات، وهى دراسة مصرية أجراها سيد عويس (1965) ، لتحليل خطابات لم تكن متبادلة بين أشخاص

أو عائلات، بل كانت ما اعتاد أن يكتبه الناس إلى الإمام الشافعى ويلقون بها فى ضريحه.

كانت الصور مثلما كانت الخطابات، مصدر بيانات لدراسات اجتماعية، غير أن الصور كانت أكثر استخداما. وقد بدأ استخدام الصور للإيضاح منذ 1916 حين ظهرت مئات منها فى المجلة الأمريكية للعلوم الاجتماعية، كما استخدمت الصور لنفس الغرض فى كثير من الدراسات الأنثروبولوجية للشرح والإيضاح (مثلا فى دراسة جريجورى باتسون ومارجاريت ميد Gregory Bateson and Margaret Mead، 1942) عن ثقافة البولينيز Balinese. ولكن استخدام الصور كأداة للبحث لم يكن شائعا، إلى أن شاع حديثا فيما يسمى علم الاجتماع المرئى.

فى هذا السياق، استخدمت الصور كوثائق فى دراسة عن مذبحة ماى لاى فى حرب فيتنام. واستخدمت كوثائق أيضا فى دراسة عن الأسر الحضرية، وفى هذه الدراسة الأخيرة وضعت الصورة فى مواجهة خلاصة المقابلة، وكانت الدراسة تقارن بين سكان مدينتى لندن وشيكاغو. ثم استخدمت الصور بعد ذلك مصدر بيانات فى دراسة عن الصور العائلية حيث كان يبدأ مقابلاته بالنظر إلى ألبومات الصور، فيما يمثل سجلا لتاريخ العائلة وعلاقاتها وطقوسها الاجتماعية (ماكيونيس و بلامر: 69-70).

استخدمت السينما أيضا لتوثيق الحياة الاجتماعية، وقد عرف ذلك القرن تطور هذا الفن ثم تطور التليفزيون والفيديو والأقراص المدمجة. وفى هذا السياق تطورت الأفلام التسجيلية، ولم تعد مجرد تتبع لشخصيات النجوم بل اتسعت لتسجل الحياة الاجتماعية بمختلف صورها. وهناك أسماء معروفة سجلت كعلامات بارزة فى تاريخ هذا الفن منها فلارتى Flaherty الذى سجل

حياة أحد أفراد الإسكيمو على مدى 11 عاما فى أصعب الظروف المناخية[11]. وفى مصر ظهرت أفلام تسجيلية كثيرة وتخصص فيها مخرجون قضوا حياتهم لينتجوا أفلامهم كوثائق اجتماعية مصورة[12].

3-8 هل يمكن الاعتماد على الإنترنت؟

تدخل الإنترنت فى نطاق ما يسمى "الميديا الجديدة"، وبانتشارها صار الباحثون يلجأون إليها كأداة بحثية وميدان للمناقشات ومصدر للحصول على البيانات (ويلسون Wilson، 2004). وقد يقال أنه لا يجوز الاعتماد عليها، بدعوى أنها مصدر غير آمن، وأن الموقع الذى تنقل عنه البيانات قد يختفى أو يتغير، ولنا أن نقيم الموقع الذى نعتمد عليه. وقد صارت الإنترنت سجلا أساسيا للبيانات على جميع المستويات، وهى بعكس ما يقال، مصدر دائم ولا تختفى بياناته من تحت أيدينا إلا إذا حذفناها. وقد تطورت وسائط التخزين وصار من الممكن تخزين كميات هائلة فى مساحة بالغة الضآلة، وهو ما يسمح بتخزين كميات لا نهائية من الوثائق، دون حاجة إلى حذف أى منها.

اليوم تحولت المكتبات الحديثة كلها إلى مكتبات رقمية يمكن الوصول إليها عبر الإنترنت بسهولة ويسر، كما تحولت المجلات العلمية الهامة كلها إلى مجلات رقمية. ونحن نحمل معنا بحوثنا ومراجعنا على حاسباتنا الشخصية ونواصل عملنا من أى مكان بالاعتماد على الإنترنت. هذه كلها

---

[11] فيلم روبرت فلارتى Robert Flaherty بعنوان "نانوك ساكن الشمال" Nanook of the North وقد ظهر عام1922. (أنظر: المرجع السابق ص 70)

[12] نذكر من هؤلاء المخرجة عطيات الأبنودى وقد حصلت على جوزائز عالمية عن أفلامها ومنها أول فيلم أخرجته بعنوان "حصان الطين". أنظر: أحمد يوسف (بدون تاريخ). أنظر أيضا عطيات الأبنودى (1997).

مصادر بيانات ثانوية، غير أننا نستطيع الحصول على بيانات إحصائية أصلية كثيرة عن مختلف الدول، من مواقع حكوماتها ومن مواقع المنظمات العالمية المعنية كالأمم المتحدة ومنظمات التجارة والصحة العالمية وغيرها. ويمكن أيضا أن نحصل على بيانات من الصحف والمجلات وهى مصادر معلومات هامة وموثقة.

يمكن أن نجد أيضا أنواعا وأعدادا كبيرة جدا من الوثائق عن حياة المجتمع سواء كانت وثائق مكتوبة أو مصورة. ويتمثل ذلك فيما يضعه الملايين من مستخدمى تلك الشبكة من ملفات مفردة ومجمعة عما يرونه ويسجلونه من رسائل وملاحظات ودعوات ووقائع وحفلات ولقاءات ومذكرات وغير ذلك. ومعظمها متاح للاستخدام ويمكن الوصول إليه يسهولة ويسر، ولا تأتى تلك البيانات من مجتمع بعينه بل تأتى من كل المجتمعات ومن كل أنحاء العالم، سواء من أفراد ينتمون إلى تلك المجتمعات أو من زائرين أو مراقبين لها.

بعد هذا كله يمكن استخراج بيانات خاصة ببحث بعينه عن طريق مقابلات بالاستبيان عبر البريد الإلكترونى. ولكن العينة فى هذه الحالة لا تمثل سوى مجتمع مستخدمى الشبكة. والاعتماد على تلك الشبكة بكل هذه الأشكال يطرح مرة أخرى مشكلة الصدق، فما أكثر المواقع التى ينشئها أفراد لا نعرف عنهم شيئا، ولا يوجد ما يدعو إلى الثقة فيما ينشرونه من معلومات. ويقدم باحث مثل شتاين Stein (2003) نصائح للباحثين تساعدهم فى اختيار المصادر التى يمكن الثقة بها.

من تلك النصائح ومن الخبرة العملية المتاحة، يمكن الاعتماد على المواقع التى تتوفر لها مصداقية علمية كمواقع الجامعات والمنظمات الدولية المعروفة. وحتى فى هذه المواقع يجب أن نعرف الهدف من نشر البيانات،

فلا نثق فى بيانات يهدف نشرها إلى الدعاية أو الترويج لفكرة أو مذهب أو اتجاه أو سلعة أو خدمة أو غير ذلك، مما لا يرتبط بموضوع البحث. ويجب أيضا الانتباه إلى مصدر المعلومات وتواريخ النشر، ولا نثق فى معلومات لا تذكر مصادرها، أو تاريخ نشرها، فهذه أمور تدعو إلى الثقة فى الموقع وإمكان متابعة وتحديث بياناته.

3-9 الاتجاه الأنثوى

عرفنا أن ماكس ويبر كان يرى أن علم الاجتماع يجب أن يكون محايدا، لا يتحيز لوجهة نظر أو معايير سياسية أو أخلاقية معينة. وعرفنا أيضا رؤية ماركس لمهمة تغيير العالم لا مجرد تفسيره. وبين هاتين الرؤيتين ينقسم علماء الاجتماع. ويمكن القول بأن أى دراسة اجتماعية لها أثر من نوع ما على المجتمع. ومن هذه الزاوية يرى بعض الباحثين (جاولدنر Gouldner، 1970)، أنه طالما كان لبحوث ذلك العلم كل هذا التأثير فالأفضل أن يختار الباحثون اتجاها سياسيا أو أخلاقيا يدعمونه، ويصبح لزاما عليهم فى هذه الحالة أن يدعموا ما يؤدى إلى تحسن أوضاع المجتمع.

لم يكن الاهتمام بالنوع الجنسى فى انتظار دعوة كهذه، بل برز مستقلا كأحد العناصر الأساسية المؤثرة فالبحوث الاجتماعية. من وجهة النظر أنثوية، لا يجوز بحث كل شئ من وجهة نظر الذكور، حيث من وجهة النظر هذه يوجد تركيز على الذكور Androcentricity، تعميم زائد غير علمى، وعمى جنسى وازدواجية فى المعايير، وتداخل يهدد البحوث كما تقول مارجريت أيكلر Margrit Eichler (1998) على سبيل المثال.

ترى وجهة النظر الأنثوية، أن دراسة العمل مثلا تركز على الوظائف مدفوعة الأجر كما لو أن الوظائف التى يمارسها الإناث كالأعمال المنزلية وتربية الأطفال لا قيمة لها. وهنا يحدث تعميم زائد عن الحد، فإذا تم جمع البيانات من الذكور وحدهم فلا يجوز تعميم نتائجها على المجتمع كله. والعكس صحيح بطبيعة الحال، فإذا جمعت بيانات من الأمهات فقط عن تربية الأطفال فهذا بحث عن الأمومة لا عن أبوة الوالدين. هذا يمثل نوعا من العمى الجنسى، بمعنى عدم رؤية أحد الجنسين أثناء البحث، يؤدى هذا إلى نتائج غير صحيحة.

من وجهة النظر هذه توجد أيضا ازدواجيةفى المعايير، فلا يطبق الباحثون نفس المعايير على الذكور والإناث. وعند دراسة الأسرة مثلا، قد ينظر الباحث إلى الزوج باعتباره رب الأسرة، ويتعامل مع الزوجة كمجرد عضو داعم للأسرة. وبنفس تلك النظرة تتداخل المعايير، ويتشوه البحث، فقد ينظر المبحوثون إلى باحثة من زاوية أنها امرأة ويقدمون إجاباتهم لها لا كباحثة بل كامرأة، وقد يحرمون عليها الدخول إلى أماكن معينة يعتبر دخولها محظورا على النساء، أو يرفضون الحديث معها على انفراد حيث يعتبرون ذلك خلوة محرمة.

كل هذا قد يكون صحيحا، ولكن لا ينبغى التطرف إلى حد القول بأن ما يتوافر لدينا الآن هو نوع من المعرفة الذكورية. وسيكون خطأ أيضا لو أجريت كل الدراسات من وجهة نظر أنثوية Gynocentricity، ففى هذه الحالة قد يحدث العمى الجنسى ويتكرر التعميم الزائد والتداخل وازدواجية المعايير. وقد اعتاد الباحثون فى مصر تلافى بعض هذه العيوب على الأقل، حيث يراعى فى أى مسح أن يكون فريق جمع البيانات من الذكور والإناث. ولكن ما زلنا

فى حاجة إلى مراعاة العيوب الأخرى. وربما لم يبرز الاتجاه الأنثوى Feminist فى مصر على المستوى البحثى فى علم الاجتماع مثلما برز على المستوى العملى والسياسى.

3-10 بين النظرية وطريقة البحث

تتحول الحقائق التى يكشف عنها البحث فى النهاية إلى نظريات. وفى هذا السياق إما أن يبدأ الباحث باكتشاف الحقائق ثم صياغة النظرية، أو يبدأ بصياغة النظرية ثم يختبر صحتها. والطريقة الأولى هى ما نسميه الاستقراء، وفيه ينتقل الباحث من الحقائق والمشاهدات التى اكتشفها إلى النظرية أى أنه يصوغ النظرية بناء على الحقائق المكتشفة، ومن هنا يتم إذن الانتقال من الخاص إلى العام.

تتخذ الطريقة الثانية مسلكا عكسيا فتبدأ بالعام أى بالنظرية، وتنتهى إلى الخاص. هذا ما يسمى الاستنباط، وبموجبه يصوغ الباحث نظريته أولا ثم يختبر صحتها، بأن يضعها فى صورة فروض يمكن أن تنفيها المشاهدات فى الواقع العملى. وإذا لم تتسق المشاهدات مع الفروض فسيكون ذلك نفيا لها، ويكون على الباحث أن يعدل نظريته أو يرفضها كلية. ولا يستخدم الباحث فى العادة منهجا واحدا بل تتعدد مناهجه، فيجمع بين الاستقراء والاستنباط فى نفس البحث.

الآن على أى حال، تستخدم أساليب الإحصاء لترتيب الحقائق وعرضها بصورة تحمل معانى مفهومة. ونستطيع أن نستنتج أن فروضنا صحيحة أو غير صحيحة تبعا لما تقوله النتائج الإحصائية. وهنا يمتزج الاستنباط

والاستقراء دون حاجة إلى الفصل أو التمييز بينهما، فقد يظهر من النتائج ما يتسق مع نظريات نعرفها، وقد يظهر منها ما ينشئ نظرية جديدة.

3-11 أخلاقيات البحث

فى البحث الاجتماعى كما فى أى بحث، يمكن أن تنتج آثار قد تكون مفيدة وقد تكون ضارة بالمبحوثين أو بالمجتمع. لهذا توجد قواعد عامة يجب على الباحثين الاجتماعيين أن يلتزموا بها ويلخصها ماكيونيس وبلامر Macionis and Plummer (2008: 73-75) على النحو التالى:

- يجب أ ن يعلنوا عن كل نتائجهم دون أن يحذفوا أى بيانات هامة.
- بجب أن يشيروا إلى مختلف التفسيرات الممكنة لنتائجهم، وأن يجعلوها متاحة لغيرهم من الباحثين الذين قد يريدون إعادة التحليل.
- ما زال محل جدل مسألة هل يجب أن يعرف المبحوثون أنهم موضوع بحث. ولا يوجد اعتراض على إمكان دراسة السلوك الاجتماعى فى مكان عام، دون أن يعلن الباحث عن وجوده، لكن معظم السوسيولوجيين يتفقون على أنه لا يجوز إجراء البحث على أى شخص بدون إذنه. وهناك خلاف أيضا حول إمكان إخفاء الباحث لطبيعة بحثه. والمشكلة هنا أنه لو أوضح للمبحوثين طبيعة البحث فلن يتصرفوا بطريقة طبيعية ولن يحصل على بيانات صحيحة. ولو أخفى طبيعة البحث فقد يستثير ذلك غضب المبحوثين. ومع استمرار هذا الخلاف يتجه الباحثون بشكل عام إلى الاتفاق على مراعاة مصلحة المبحوثين بحيث لا يلحق بهم أى ضرر. وحفاظا على سلامة المبحوثين وعدم الإضرار بهم يلتزم الباحثون بإنهاء البحث مهما كان يبدو واعدا، إذا تبين أن هناك خطرا علومن أى نوع

سوف بلحق بالمبحوثين. وإذا كان هناك احتمال أن يصيب المبحوثين أى نوع من المتاعب فيجب تعريف المبحوث بذلك والحصول على موافقته على قبول المخاطرة.

- على الباحثين أن يعلنوا عن مصادر تمويل البحث وألا يقبلوا أى تمويل من أى جهة تريد استغلال البحث لتحقيق مكاسب خاصة لها.
- إذا كانت الدراسة تتعلق بثقافات متنوعة سواء داخل نفس المجتمع، أو بإجراء البحث فى مجتمعات خارجية، فيجب على الباحث أن يكون على معرفة بخصائص تلك المجتمعات وما تعتبره أضرارا شخصية أو مساسا بخصوصية الفرد. وتنطبق فى النهاية نفس المعايير السابقة.
- عند إعلان نتائج البحث يجب أن يعلن الباحث عن الطريقة التى أجرى بها البحث. ويجب على وجه الخصوص أن يراعى السرية، فلا يعلن عن أسماء المبحوثين، أو اسماء المؤسسات التى أجرى بها البحث كالمدارس وغيرها وإعطاء أسماء رمزية لتلك المؤسسات. كى لا يكون أى من الأفراد أو المؤسسات عرضة للاستغلال.

4

أنماط المجتمعات

تتطور المجتمعات عبر الزمن، ويرتبط ذلك بمستوى التكنولوجيا المستخدمة. وقد اعتدنا أن نربط بين التكنولوجيا وبين المجتمعات الحديثة، ولكن لفظ التكنولوجيا بمعناه العام يعنى الفن الإنتاجى أيا كان مستواه. هكذا توجد فى الحياة البدائية تكنولوجيا لكنها ليست متطورة، وكان يترتب على ذلك أن يكون حجم المجتمع صغيرا، لأن انخفاض المستوى التكنولوجى يعنى انخفاض إنتاجية العمل بحيث، فلا يمكن إعالة أعداد كبيرة من الناس. وبتطور التكنولوجيا تزداد الإنتاجية ويمكن إعالة أعداد كبيرة وبذلك تزداد أحجام المجتمعات، وتزداد أيضا سرعة التطور. لهذا كان تطور الحياة بطيئا فى الماضى، وصار أسرع بكثير فى العصر الحديث.

4-1 الأنماط التاريخية للمجتمعات

تبعا لمراحل التطور التكنولوجى التاريخية، عرفت البشرية تطورا اجتماعيا، يسميه لينسكى وآخرون (2004)، التطور الاجتماعى الثقافى، حيث التطور التكنولوجى تطور معرفى، تزداد به سيطرة المجتمعات على بيئتها الطبيعية، ويتغير بالتالى نمط حياة المجتمع. من هذا المنظور يعتبر علماء الاجتماع الماركسيين أن ماركس هو مؤسس ما يسمونه علم الاجتماع

العلمى (أوسيبوف، مرجع سابق). وهم يقصدون بهذا تطوير ماركس لما يسمى المادية التاريخية، التى لا تستخلص حقيقة الظواهر الاجتماعية من الدين ولا من وعى الفرد، بل من ظروف الإنتاج المادى الذى تبنى حوله حياة المجتمع.

بناء على ذلك الفهم المادى للتاريخ، صاغ ماركس قانونا لتطور الأشكال الاجتماعية يقول أن مستوى تطور تكنولوجيا الإنتاج يحدد شكل العلاقات الاجتماعية ونمط المجتمع (المرجع السابق). وهكذا ميز علم الاجتماع الماركسى خمسة أنماط من المجتمعات، هى الشيوعية البدائية، والعبودية، والإقطاعية، والرأسمالية، والاشتراكية الحديثة (دار التقدم، 1988، أيضا ف. ج. أفاناسييف، 1975). وهذا تمييز لا يخلو من طابع سياسى. ويوازى ذلك تمييز لينسكى وزملائه (2004) لخمسة أنماط تاريخية هى مجتمعات الصيد والتقاط الثمار، ومجتمعات الرعاة، والمجتمعات الزراعية، ومجتمعات الصناعة، ثم مجتمعات ما بعد الصناعة. وسنتتبع هنا ذلك التصنيف الأخير.

4-1-1 مجتمعات الصيد

عرفت مجتمعات الصيد والتقاط الثمار تكنولوجيا بسيطة جدا مكنتها من قنص الحيوانات والتقاط النباتات التى تؤكل. وقد كانت البشر كلهم يعيشون ذلك النمط من الحياة، منذ عاش الإنسان على الأرض حتى 12000 عاما مضت. بعد ذلك بدأ هذا النمط يتقلص ببطء، وزادت سرعة تقلصه منذ عدة قرون حين زادت سرعة نمو الصناعة. وتقدر أعداد تلك المجتمعات الآن على مستوى العالم، فى حدود 300 مليونا، ينتشرون فى 72 دولة، وما زالوا يعيشون على الفطرة مرتبطين بالحياة البرية فى المناطق التى كان يعيش فيها أسلافهم فى بعض أقاليم وسط وغرب أفريقيا، وفى أستراليا ونيوزيلندا، وشمال غرب

كندا.

يعيش هؤلاء الناس فى تجمعات صغيرة بأعداد قليلة متناثرين فى مساحات واسعة نظرا لفقر المناطق التى يعيشون فيها. وهم لا يستقرون فى مكان، فكلما نضبت النباتات فى مكان انتقلوا إلى غيره، وإن كانوا يعودون دائما إلى مكان مفضل بالنسبة لهم. ويستغرق السعى وراء مصادر الغذاء كل وقتهم، حيث يحصلون عليه وجبة بوجبة. وتربط بين هؤلاء الناس صلات القرابة. ومارسون جميعا كل الأنشطة التى يعرفونها. ولا يوجد تخصص إلا على أساس الجنس والعمر، فتيتخصص النساء فى جمع النباتات وهو المصدر المضمون نسبيا، أما الرجال فيقومون بأعمال الصيد الأكثر مخاطرة. مع ذلك، لا يتمتع الرجال فى هذه المجتمعات بمكانة أعلى من مكانة النساء. والواضح أن هذا يرجع إلى قسوة ظروف الحياة التى لا تميز أحدا عن غيره.

لم تكن فى تلك المجتمعات قيادة رسمية، ولكنها كان فيها حياة روحية وكان بها قادة روحيون تمتعوا بمكانة عالية، ولكنهم لم يتمتعوا فى مقابل ذلك بأية مزايا مادية خاصة، بل مارسوا القنص مثل غيرهم. وكان من هو أكثر مهارة فى القنص يتمتع بمكانة عالية أيضا، لكنه ظل مثل الجميع لا يتمتع بمزايا مادية خاصة. وهكذا تتميز حياة هذه المجتمعات بالبساطة والمساواة. ومع أنهم تسلحوا بالحربة والقوس والسهم، وبسكاكين حجرية، لكن لم تنشب بينهم الحروب. وكانت الطبيعة هى التى تعصف بهم، وكانت تنتشر بينهم الأمراض ويموت كثير منهم وهم أطفال، ويموت نصفهم قبل سن العشرين (لينسكى وآخرون .Lenski et al، 2004؛ أيضا، مجموعة العمل الدولية من أجل الشعوب الأصلية IWIGA).

4-1-2 مجتمعات الرعى وبداية الزراعة

كانت بداية الزراعة ما حدث من تقدم تكنولوجى سمح بصنع الأدوات الحجرية. وقد صنعت فئوس حجرية يمكن بها أن تعزق الأرض، وعصيا يمكن بها ثقب التربة ووضع البذور. بدأ هذا فى الشرق الأوسط ثم فى أمريكا اللاتينية وآسيا. وبهذا كان يمكن زراعة مساحات صغيرة من الأرض. وأدى الانتشار الثقافى إلى نشر هذا النوع من الزراعة فى معظم أنحاء العالم قبل حوالى 6000 عام. ولم يكن معنى ذلك ترك الصيد، فقد وجدت بدايات الزارعة هذه بجانب الصيد.

ربما كان باستطاعة سكان المناطق الغنية بالنباتات أن يرفضوا ذلك التحول باعتباره قليل الفائدة بالنسبة لهم. أما فى المناطق القاحلة، كالمناطق الصحراوية فى الشرق الأوسط والمناطق الجبلية مثل جبال الألب التى عاش فيها إنسان الجليد[13]، فقد وجد الناس وسيلة لتدبير غذائهم من خلال تطور تكنولوجى آخر هو الرعى واستئناس الحيوانات. وهنا أيضا أمكن الجمع بين الرعى واستئناس الحيوان وبين الزراعات الصغيرة المتناثرة. وما زالت توجد مجتمعات مزدهرة فى أمريكا الجنوبية وأفريقيا وآسيا تقوم على الرعى واستئناس الحيوان وهذه الزراعات.

باستئناس النبات والحيوان أمكن زيادة إنتاج الغذاء، فزاد عدد السكان، وبينما ظل الرعاة يمارسون حياة التنقل وراء العشب حيث يوجد، كانت الزراعة المتناثرة تشجع الاستقرار. وبالتزاوج مع التجارة نشأت تجمعات كبيرة نسبيا يعد

---

[13] اكتشفت جثة كاملة لإنسان الجليد، وهى لشخص عاش ومات منذ أكثر من خمسة آلاف عام، وتعتبر هذه أقدم مومياء تم اكتشافها حتى الآن. وقد اكتشفها بالصدفة أحد متسلقى جبال الألب عام 1991، وكانت الجثة المكتشفة تلبس ملابسها كاملة وكانت معها ادوات شخصية كاملة، شملت أسلحة الدفاع وأعشابا طبية للتداوى، وأشياء أخرى. (أنظر Wikipedia, d)

سكانها بالآلاف. وبزيادة إنتاج الغذاء صار من الممكن أن ينفصل بعض الأفراد عن العمل الإنتاجى ليتفرغوا لأعمال أخرى، كالصناعة الحرفية وأعمال التجارة وهكذا ظهر التخصص. وكان من الممكن أيضا أن يتفرغ الكهنة. وصاحب ذلك تطور الحياة الروحية مقارنة بما كان فى مجتمعات الصيد.

وجدت فى تلك المجتمعات مظاهر عدم المساواة، فالمناطق التى تنتج غذاء أكثر تتمتع بمزايا وقوة أكبر من غيرها، وكان باستطاعة الأسر الميسورة أن تتحالف معا ليدوم فيها الرخاء عبر الأجيال. وهنالك ظهرت أشكال بدائية من الحكومات تدعمها القوة العسكرية، لكنها كانت بالطبع تسيطر على مناطق صغيرة نظرا لصعوبة التنقل والاتصال. وبذلك كله صارت مجتمعات الرعى والزراعة المتناثرة أكثر تعقيدا (لينسكى وآخرون .Lenski et al، 2004). وقد ظهرت فكرة الإله الخالق لدى الزراع، وتعمقت هذه الفكرة لدى الرعاة فآمنوا بأن الله هو الذى يهئ للبشر رخاء الحياة، وكان الشرق الأوسط هو الموطن الأول الذى ظهرت فيه هذه العقائد (ميرسيا إلياد، 1987/1986).

4-1-3 المجتمعات الزراعية

استمر التطور التكنولوجى، فظهر المحراث الذى تجره الحيوانات، وبذلك أمكن حرث مساحات كبيرة من الأرض، وصارت قوة الحيوان مصدرا للطاقة اللازمة كقوة محركة. وتطورت أساليب تكنولوجية أخرى شملت أساليب الرى، وبذلك تطورت الزراعة على نطاق واسع، وكان ذلك قبل حوالى خمسة آلاف عام، وكانت بدايتها فى المناطق النهرية فى الشرق الأوسط، وفى مقدمتها مصر. وبذلك اتسع نطاق الاستقرار، ونشأت القرى الدائمة. ولم تكن هذه هى التطورات التكنولوجية الوحيدة، فقد حدثت تطورات أخرى كظهور

الكتابة ومعرفة الأعداد واختراع العجلة ومعرفة كيفية صهر المعادن وزيادة استخدامها.

حدث بذلك تحول نوعى فى الحياة على نطاق العالم، ونشأت الدول وتطورت نظم الإدارة الحكومية، ومع استمرار التطور نشأت الامبرطوريات الكبرى. وكانت زيادة الإنتاجية تساعد على ذلك، حيث ينتج المزارع ما يفيض عما يكفى احتياجاته، وهذا الفائض يمكن للحكومات جبايته للإنفاق على موظفيها وعلى جيشها دون أن تتأثر حياة المزارعين. وبظهور الموظفين والإدارة الحكومية زاد التخصص، وكان يزداد بانفصال مزيد من العمليات الإنتاجية لتتحول بذاتها إلى مهن جديدة، وكان اتساع التخصص يؤدى بدوره إلى ازدياد الإنتاجية وازدياد الإنتاج.

باتساع التخصص على هذا النحو يزداد التبادل التجارى. وكان التبادل يعتمد فى بدايته على المقايضة واستمر كذلك إلى أن تطورت النقود فيسرته ووسعت نطاقه، وبهذا تطورت المدن وانتشرت. وباستمرار التطور فى هذا الاتجاه ظهرت السفن ويسرت الانتقال والتجارة عبر البحار، ونشأت مدن تجارية كبرى فى مختلف أنحاء العالم. وكما زادت الفوارق الاجتماعية بين الناس بزيادة الإنتاج زادت الفوارق أيضا بين المناطق المختلفة بقدر ما كان فيها من موارد مائية ومعدنية وبقدر ما تباين التطور التكنولوجى.

4-1-4 المجتمعات الصناعية

كانت الصناعة فى بداياتها أعمالا حرفية، وباتساع نطاق الأعمال الحرفية تطورت أدواتها وظهرت الآلات، وظهرت الحاجة إلى مصادر للطاقة

أقوى من طاقة الإنسان والحيوان فاستخدمت قوة الماء والرياح. وتطورت بعد ذلك القوة الميكانيكية بتطور المحركات. وكان ذلك بداية الثورة الصناعية التى أدت إلى تغير اجتماعى هائل. زاد حجم المصانع واتسعت المدن الصناعية وزادت الحاجة إلى العمالة فاجتذبت النساء إلى سوق العمل واجتذبت المهاجرين من سكان الريف. وتغيرت علاقات العمل وعلاقات سكان المدن فلم تعد مبنية على القرابة.

بهذا التطور زادت الحاجة إلى وسائل اتصال جديدة، فظهرت الطباعة وتيسر الاتصال وانتشار المعلومات عن طريق الصحف والكتب. وأدى تطور الصناعة أيضا إلى تركز الثروة فى أيد قليلة، فزادت نسب الفقر. وكانت الصناعة سببا فى زيادة التلوث وساعد هذا مع ازدياد الفقر على زيادة الأمراض والأوبئة. ولما تقدم العلم ومعه علوم الطب بدأت تنحسر الأوبئة وانخفضت معدلات الوفاة وبدأت قصة زيادة السكان. واستمر تطور الصناعة وزادت الحاجة إلى النقل السريع فتطورت السفن ذات المحركات وتطورت القطارات.

استمر التطور وظهرت الكهرباء والمحركات الكهربائية، فأعطت دفعة جديدة للتطور الصناعى. وظهرت محركات الاحتراق الداخلى فتطورت السيارات. وتطور الاتصال بظهور التلغراف والتليفون وبتطور الإلكترونيات ظهرت الإذاعة والتليفزيون. وبسيادة العلاقات التى لا تقوم على القرابة، تفككت الأسر وتباعد أفرادها. زادت بذلك نسب غير المتزوجين، وزاد الطلاق وظهرت أنماط من الأسر ذات الوالد الواحد والأسر التى تعولها النساء. وبينما كانت الأمية منتشرة فى المجتمعات الزراعية كانت الصناعة تحتاج إلى عمال متعلمين، فانتشر التعليم وزادت نسبة المتعلمين.

خلال تلك المسيرة كان العلم يتطور بسرعة، وظهرت أنماط ثقافية جديدة، ولم تتغير فقط بنية المجتمعات الصناعية بل تغيرت بنية معظم مجتمعات العالم. وكان السبب هو الاحتكاك والتفاعل، بعد أن اتسعت الأسواق وترابطت وفرض ذلك فرضا على مستوى العالم عن طريق الاستعمار. وبذلك زاد التبادل التجارى على نحو غير مسبوق، وتيسر الانتقال والاتصال والتبادل الثقافى وصار العالم أشبه بقرية واحدة. ومع الزمن انتشرت أفكار التحرر والديمقراطية، وظهرت دول العالم الثالث وفيها أنماط اجتماعية انتقلت إليها بعض سمات المجتمعات الصناعية دون أن تختفى فيها سمات المجتمعات السابقة على الصناعة.

4-1-5 مجتمعات ما بعد الصناعة

أصدر دانييل بل Daniel Bell كتابه عن مجتمع ما بعد الصناعة (1974) وبذلك راج هذا المصطلح. وكان هذا مرتبطا بتطور تكنولوجيا الحاسبات، وظهور شبكة المعلومات الإلكترونية كوسيلة اتصال ونشر وتخزين للمعلومات. ويستخدم كمرادف لذلك مصطلح "مجتمع المعلومات"، ويعادله مصطلح "مجتمع المعرفة" (بنيجر Beniger، 1986). ويتميز مجتمع ما بعد الصناعة بأنه المجتمع الذى يستخدم الأجهزة الإلكترونية لينتج المعلومات كسلعة غير مادية، فى مقابل مجتمع الصناعة الذى ينتج السلع المادية. وقد صكت مصطلحات أخرى تصف هذا المجتمع بأنه مجتمع المعلومات، أو مجتمع ما بعد الحداثة

أنشأ هذا التغير التكنولوجى مهنا جديدة مرتبطة بالاتصالات. وفى هذه المهن الجديدة يتعلم الفرد كيف يتعامل مع الأجهزة الإلكترونية التى تنتج

المعلومات وتوصلها وتختزنها. وتعتمد هذه المهن الجديدة على المهارات الذهنية، بعد أن كانت المهارات الميكانيكية هى أعلى المهارات فى مجتمع الصناعة. تزداد أعداد المشتغلين بتلك المهن بسرعة، فى المجالات الأكاديمية ومجالات الإدارة والتسويق والإعلان وغيرها. ويترتب على هذا تغير التركيب المهنى فى المجتمع، وبينما لا تقل أعداد المشتغلين بالإنتاج المادى إلا أن نسبتهم إلى مجموع المشتغلين تنخفض نظرا لتزايد أعداد المشتغلين بالمهن الجديدة.

حدث هذا التطور فى المجتمعات المتقدمة وأطلق عليه أيضا اسم ثورة المعلومات، وانتشر فى العالم كله، حيث انتشرت أجهزة الاتصالات واتسعت شبكة المعلومات لتشمل العالم وتربط كل أجزائه وتصنع بذلك مجالا للتفاعل الثقافى على نطاق العالم. وصار من الممكن وصف المجتمع العالمى بأنه مجتمع ما بعد الحداثة ولكن بمعنى آخر، فهو عالم تتكسر فيه الحدود الثقافية بين المجتمعات. ويوجد بالطبع مكان لثقافات جميع الشعوب بما فى ذلك الثقافات البدائية، وسينتج تفاعل تلك الثقافات عالما جديدا لا يمكن التنبؤ الآن بنوعيته. لكن الثقافات البدائية لا تشارك فى التفاعل بقوة، وربما ينتهى الحال بكثير منها إلى الانقراض.

4-2 تصنيف المجتمعات المعاصرة

ما زالت هذه الأنماط التى ظهرت فى التاريخ موجودة على الأرض، فلم يترتب على ظهور الأنماط الأحدث اختفاء الأنماط القديمة وإن تقلص وجودها. ويمكن تصنيف المجتمعات المعاصرة على أساس نوع لنظام الاجتماعى أو على أسس تشير إلى مرحلة النمو أومستوى التقدم الذى حققته. ولفترة طويلة

خلال القرن العشرين، صنفت المجتمعات إلى مجتمعات اشتراكية أو رأسمالية أو مجتمعات تنتمى للعالم الثالث. وفى هذا السياق كان العالم الأول عالم الرأسمالية وما نسميه هنا مجتمع الصناعة، وكان العالم الثانى عالم الاشتراكية، وكان يتطور فى اتجاه مجتمع الصناعة. أما العالم الثالث فهو البلدان التى لا تنتمى إلى أى من هاتين الفئتين، والتى شكلت يوما ما كان يسمى مجموعة عدم الانحياز.

4-2-1 المجتمعات الاشتراكية والرأسمالية

ظهر النظام الاشتراكى فى العالم بعد الحرب العالمية الأولى، فيما سمى فى حينها بالاتحاد السوفيتى. وأدخل نفس النظام بعد الحرب العالمية الثانية فى البلاد التى سيطرت عليها الجيوش السوفيتية وانتزعتها من الجيوش الألمانية التى احتلتها أثناء الحرب. وشمل ذلك فى حينها مجتمعات شرق أوربا، وأدى ذلك إلى اتساع رقعة النظام الاشتراكى، ولكن تباينت مستويات التطور فى مختلف هذه المجتمعات الاشتراكية. وكان أكثرها تقدما بطبيعة الحال هو المجتمع السوفيتى، ولكن حتى فى هذا المجتمع لم يكن التقدم متساويا فى كل أجزائه.

لم تختلف نوعية التكنولوجيا فى البلاد الاشتراكية عنها فى البلاد الرأسمالية إلا من حيث مستوى التقدم، ومدى انتشاره فى القطاعات غير الصناعية، وسرعة هذا الانتشار. والمعروف أن إدخال التكنولوجيا الحديثة فى الزراعة السوفيتية كان سببا فى تطوير ما سمى الزراعة الجماعية، ومنها زراعة تعاونية، تنضم الملكيات الصغيرة معا لتشكل وحدات تعاونية كبيرة يمكن أن تستخدم فيها الجرارات وآلات الحصاد وآلات الرى ومعدات النقل

الميكانيكية. وبجانب هذا النوع كانت الدولة تتملك مساحات واسعة تديرها كمزارع كبرى على أسس صناعية.

لم تتطور الصناعة فى جميع بلدان الاتحاد السوفيتى بنفس السرعة وظلت بعض أجزائه زراعية فى الأساس، وكان المبرر أن اقتصاديات بلدان الاتحاد تتكامل فى النهاية، بحكم وجود الاتحاد. وهكذا تعددت هياكل بنية المجتمعات داخل ذلك الاتحاد رغم نشر التكنولوجيا الأحدث فى كل القطاعات. والمسألة أن الصناعة تضيف فائضا اقتصاديا أكبر نتيجة تعدد عمليات التصنيع. ولهذا ينخفض الدخل فى المجتمعات الزراعية حتى لو كانت الزراعة فيها تستخدم تكنولوجيا متطورة.

بهذا التعدد تباينت مستويات الرفاهية، ولم تكن هناك مساواة بين المناطق الصناعية والمناطق غير الصناعية. وبقيت الثقافات الموروثة فى مناطقها ولم تتوحد وإن تقاربت. ونتجت عن ذلك توترات أسفرت فى النهاية عن تفكك الاتحاد السوفيتى وسقوط النظام الاشتراكى هناك. وثبت بذلك أنه لم يكن سوى نظاما لملكية الدولة ينهار إذا تخلت عنه. وتمثل الصين التى كانت أهم أجزاء النظام الاشتراكى بعد الاتحاد السوفيتى نموذجا مختلفا، فهناك تتعايش الاشتراكية مع الرأسمالية (الحكومة الصينية، Chinese Government، 2013).

كانت أهم سمات النظام الاشتراكى مبادئ الملكية الجماعية حيث لا تتركز الثروة فى يد فئة من المجتمع. وفى المقابل تتميز المجتمعات الرأسمالية بأنها تقوم على الملكية الفردية. وتمثل الملكية فيه حافزا للفرد على بذل جهد أكبر لحماية ملكيته وتطويرها وتطوير إنتاجيته. وتحاول الاشتراكية أن تطبق حوافز مالية تشجع المجتهدين وتصنع تباينا فى الدخل بين الأفراد، ويقال أن

هذا يصنع فارق التقدم بين المجتمعات الرأسمالية والاشتراكية، وأن هذا هو ما أدى لسقوط الاشتراكية السوفيتية. لكن هذا يحتاج إلى دراسات أعمق[14].

يبدو هذا حين نراجع تفكك الاتحاد السوفيتى، فقد تفكك إلى مكوناته الأصلية، وهى مكونات قومية، مما يشير إلى أن التوترات القومية كانت أكثر أهمية. وهذا يؤكد أثر التباين فى مستويات التقدم الصناعى بين مختلف البلدان داخل الاتحاد. وكانت روسيا هى الأكثر تطورا والتى تركز فيها التقدم الصناعى. وهو ما يعنى الهيمنة على البلدان غير الصناعية، لأن الصناعة هى التى تمد سائر القطاعات باحتياجاتها. وبهذا يمكن الحديث عن تبعية اقتصادية وسياسية كانت تتسم بها العلاقات بين القوميات المكونة للاتحاد.

هكذا بقيت فروق التطور السابقة على التحول نحو الاشتراكية، حيث كانت الدول الأكثر تقدما هى التى سبقت غيرها على طريق الثورة الصناعية. وكانت روسيا قد قطعت شوطا فى هذا الطريق أكثر من بلدان الاتحاد السوفيتى الأخرى. وسارت الأمور على نفس المنوال بعد التحول الاشتراكى. ولم تكن الاشتراكية كافية لتحقيق تطور متساو فى بلدانها، يعوض تخلف بعضها عن بعض فى فترات سابقة. ولم يوجد فى الواقع نمط واحد يمكن أن يسمى النمط الاشتراكى، وكان هناك فقط عملية تحول فى ذلك الاتجاه.

4-2-2 العالم الثالث

تضم مجتمعات هذا العالم الثالث الدول التى لا تنتمى إلى معسكر الاشتراكية والتى لم يصل نموها إلى مستوى يضعها فى مصاف الدول

[14] عن الاتحاد السوفيتى راجع: مكتبة الكونجرس على الإنترنت: دراسة دولة الاتحاد السوفيتى السابق

الصناعية. وكانت كلها خاضعة للاستعمار، قبل أن تنال استقلالها. وكان الهدف من استعمارها أن تكون أسواقا لمنتجات المجتمعات الصناعية. وفى هذا الإطار تغيرت فيها النظم القديمة التى كان الإنتاج فيها يعتمد على الاكتفاء الذاتى، وكانت التجارة فيها تعتمد على المقايضة. صارت مجتمعات تنتج المواد الخام اللازمة للصناعة وتصدرها للأسواق الصناعية وتشترى بالحصيلة سلعا مصنوعة. وهكذا صارت نظم الإنتاج فيها تعتمد على السوق، لكنها لم تصبح نظما رأسمالية بالمعنى الحديث.

كانت مصر على سبيل المثال، تنتج القطن لمصانع النسيج الأوربية، وكان من ينتج القطن يشترى غذاءه من غيره من الزراع. وبهذا تحولت كل المحاصيل الزراعية إلى سلع تباع فى الأسواق. ولم تعد الزراعة تنتج فقط ما يحتاج إليه المزارع هو وأسرته، وصارت بذلك جزءا من السوق الرأسمالى، وأمكن إدخال بعض المعدات الصناعية لأغراض الحرث والرى ورش المبيدات، وأدخلت كذلك كيماويات التسميد وكيماويات مقاومة الآفات. وبالتوازى تطورت عمليات النقل والتخزين وبناء الطرق ووسائل الاتصال.

أدخلت شبكات التليفون والتلغراف، واتسعت التجارة واتسعت المدن بالتالى. وأدى تطور المدن إلى تطور الصناعات الحرفية بإدخال أدوات جديدة مستوردة، ثم نشأت صناعات حديثة كانت تعتمد بدورها على استيراد ما يلزمها من أدوات ومعدات. وكان هذا كله تطورا تكنولوجيا حديثا، لكنه لم ينبع من داخل المجتمع، بل كان يعتمد على الاستيراد من الخارج. ولهذا بقى النظام الإنتاجى والسوق كلها جزءا ملحقا بنظم الإنتاج فى المجتمعات الصناعية وبقى السوق كله ملحقا بأسواق البلدان الصناعية.

هكذا حدث تقدم لم يكن ناتجا عن تطور تكنولوجى محلى، وكان يتم

استيراده لأغراض وعمليات إنتاجية محددة. وبذلك بقيت أنماط المجتمعات القديمة، ومنها النمط الزراعى برغم ما أدخل على الزراعة من تطور حولها فى معظم تلك البلدان إلى زراعة للسوق مرتبطة بأسواق المجتمعات الصناعية. وظلت توجد أيضا أنماط أقدم كأنماط القنص والرعى. وبقاء هذه الأنماط القديمة لا ينفى حدوث التطور ولا يعرقله، وقد بقيت تلك الأنماط بدرجات مختلفة وما زالت بقاياها توجد حتى فى بلاد المجتمعات الصناعية.

لا زالت أنماط القنص توجد فى مناطق الجليد الشمالية فى روسيا وكندا وهى بلدان متقدمة، لكنها جيوب صغيرة بها أعداد قليلة من السكان. أما فى العالم الثالث فلا توجد فقط بقايا من الأنماط القديمة بل توجد تلك الأنماط فى مساحات كبيرة وتجمعات سكانية كبيرة. ومع تطور الزراعة ظلت متخلفة كثيرا عن زراعات المجتمعات الصناعية. وهكذا تتباين مستويات التطور فى مجتمعات العالم الثالث، وتتعايش وتمتزج فيها كل الأنماط الاجتماعية التى عرفها التاريخ. ولا يوجد هذا فى دول مختلفة فقط بل يوجد حتى فى الدولة الواحدة.

حين ننظر من هذه الزاوية، ونقول أن الأنماط الاجتماعية القديمة لم تختف من العالم، فإن هذا ينطبق أساسا على بلدان تلك المجتمعات التى تسمى العالم الثالث. وقد أنشأت معظم تلك البلدان مصانع حديثة، وزاد فيها استخدام تكنولوجيا المعلومات، بقدر ما احتكت بالأمم الصناعية ونقلت عنها. لكن هذا لم يجعل منها مجتمعات صناعية متقدمة، وإنما صنع جيوبا حديثة هنا وهناك تعتمد على استيراد التكنولوجيا الحديثة. وكذلك حصل كثير من أبناء تلك المجتمعات على أعلى الدرجات العلمية من الخارج، وأنشئت بها جامعات حديثة، لكن العلم لم يتطور فيها مثلما تطور فى البلدان الصناعية.

4-2-3 تصنيفات أخرى

كانت التصنيف على أساس سياسى يعمق حالة الصراع والحرب الباردة، ولذلك ظهرت تصنيفات أخرى على أساس معايير مختلفة للتقدم. فهناك مجموعة الثمانية الكبار[15]، وهى أكثر الدول الصناعية تقدما، ومجموعة العشرين وهى الدول الصناعية فى المستوى التالى للدول الثمانية[16]، ثم تأتى سائر الدول كدول نامية. وهناك تصنيفات على أساس متوسط دخل الفرد[17]، أو مقياس ما سمى التنمية الإنسانية[18]. والآن تراجع التصنيف السياسى وتأكد تراجعه بعد انهيار الاتحاد السوفيتى وانتهاء ما كان يسمى الحرب الباردة.

بمتوسط دخل الفرد جرى تصنيف الدول إلى فئات؛ فئة مرتفعة الدخل، هى الولايات المتحدة وأوربا الغربية واليابان وكندا واستراليا. وفئة تمثل شريحة عليا من الدخول المتوسطة تشمل الاتحاد السوفيتى ودول شرق أوربا، وبعض دول أمريكا اللاتينية وجنوب إفريقيا وليبيا ودولا آسيوية أخرى. وتأتى بعد ذلك شريحة دنيا من الدخل المتوسط تمثل الصين وبقية دول أمريكا اللاتينية، وبعض الدول الآسيوية الأخرى. وتجئ مصر ودول عربية وأفريقية أخرى ضمن تلك الفئة. وتمثل باقى الدول فئة منخفضة الدخل.

بهذا المقياس كانت تدخل فى تلك الفئة دول غير صناعية كالمملكة

---

[15] تضم هذه القائمة كلا من: الولايات المتحدة الأمريكية، وكندا، واليابان، وألمانيا، والمملكة المتحدة، وفرنسا، وإيطاليا، وروسيا، راجع: مركز معلومات الثمانية الكبار الموقع الرسمى G-8 Official Site

[16] تشمل مجموعة العشرين بالإضافة إلى الثمانية الكبار كلا من: جنوب أفريقيا، والمكسيك، والبرازيل، والأرجنتين، والصين، وكوريا الجنوبية والهند، وإندونيسيا، وتركيا، والسعودية، واستراليا، والاتحاد الأوربى. راجع: مجموعة العشرين، الموقع الرسمى G-20, Offical Site

[17] يمكن الرجوع إلى هذا التصنيف فى إحصاءات البنك الدولى. أنظر World Bank

[18] تعده الأمم المتحدة. أنظر UNDATA

السعودية والكويت، لكنها تحصل على عائد ضخم من إنتاج النفط. وقد عولج هذا العيب بتصنيف الدول بمعيار التنمية الإنسانية، وهو يأخذ فى الاعتبار مستويات التعليم والصحة ومعايير أخرى لنوعية الحياة. وبهذا قسمت الدول إلى ثلاث شرائح، عليا ومتوسطة ودنيا، وخرجت دول النفط من الشريحة العليا. ودخلت مصر ومعظم الدول العربية فى الشريحة المتوسطة، وكانت الصين والدول الصناعية الناهضة فى شرق آسيا فى نفس الشريحة. لهذا لا يتسق ذلك التصنيف أيضا مع مستويات النمو الحقيقية.

كان يوجد تصنيف آخر لم يعد شائعا الآن، وهو التصنيف إلى دول الشمال ودول الجنوب، وهو يقوم على أساس اقتصادى وسياسى. كانت دول الشمال هى الدول المتقدمة ودول الجنوب هى الدول الأقل تقدما. ورغم المعنى الجغرافى للتقسيم إلا أنه لم يكن جغرافيا. لكن معظم الدول المتقدمة كانت فى النصف الشمالى من الكرة الأرضية، كما أن هناك أربعة من الدول دائمة العضوية فى مجلس الأمن. وكانت هناك أيضا معظم دول العالم الثانى. وتوجد بالإضافة لذلك مجوعة ال 77، وهى دول عدم الانحياز.

هكذا تظل التصنيفات متحركة ونسبية، ولكن يظل التصنيف على أساس مستوى التقدم الصناعى هو الأكثر تعبيرا عن حقيقة التقدم، لأنه يشير إلى أهم العوامل التى تصنع التميز وهى التقدم التكنولوجى. ويرتبط بذلك ارتفاع الدخل وارتفاع مستوى التعليم والتقدم العلمى والصحى. وبذلك يشير هذا التصنيف إلى الطريق الذى يجب أن تسلكه الشعوب الناهضة.

3-4 نمط المجتمع المصرى

عرف المجتمع المصرى الصناعات الحرفية القديمة كما عرف أيضا االصناعات الحديثة، وفى مصر قطاع صناعى واسع لكنها لم تدخل بعد عصر الثورة الصناعية. والمقصود بهذا أن المجتمع المصرى لا ينتج احتياجاته من المعدات والآلات والأدوات الصناعية. وما زالت الصناعة المصرية الحديثة تعتمد على استيراد المعارف والمنتجات التكنولوجية من الدول المتقدمة. هذا يعطى للنظام الإنتاجى وللمجتمع المصرى طابع نظم ما قبل الصناعة، ويستبعد مصر من مجموعات الدول المتقدمة. ومن الناحية الفعلية تعتبر مصر إحدى دول العالم الثالث، وهى أيضا إحدى دول مجموعة الدول التى تسمى غير المنحازة.

نشأت الصناعة الحديثة فى مصر بعد ثورة 1919، بجهود بنك مصر الذى أسسه طلعت حرب عام 1922، ونجح فى إيجاد موجة من التصنيع، شملت قطاعات إنتاجية عديدة. وبهذا النموذج نستطيع أن نلقى الضوء على بعض سمات مجتمعات ما قبل الصناعة التى توجد الآن فى هذا العصر. فى ضوء هذا النموذج يمكن القول بأن الحديث عن هذا النوع من المجتمعات لا ينفى وجود أنشطة إنتاجية صناعية بها، مثلما لا ينفى الحديث عن مجتمعات الصناعة وجود أنشطة زراعية بها. ويلاحظ أن الزراعة فى المجتمعات الصناعية متقدمة جدا، وإنتاجية العمالة فيها أعلى من إنتاجيتها فى البلاد غير الصناعية، والتى تمثل الزراعة فيها قطاع الإنتاج والعمل الرئيسى.

الأنشطة الزراعية هى التى تنتج محاصيل الغذاء فى كل المجتمعات الإنسانية، والتقدم التكنولوجى فى البلاد الصناعية ينتقل إلى الزراعة فيها فيرفع إنتاجية العمل بها. ولكن إنتاجية الأرض فى مصر عالية، بعكس إنتاجية

العمل الزراعى، لأن الأرض تزرع بكثافة، وتنتج أكثر من محصول واحد فى العام. والفارق الحقيقى بين المجتمعات الصناعية ومجتمعات ما قبل الصناعة هو فارق فى مستوى التكنولوجيا المستخدمة وفى القدرة على إنتاج تلك التكنولوجيا ونشرها فى كل القطاعات والأنشطة.

المجتمعات الصناعية مجتمعات تطورت فيها التكنولوجيا إلى مستويات عالية، ولا يقتصر فيها انتشار التكنولوجيا المتطورة على قطاع الصناعة بل تنتشر فى جميع القطاعات. أما فى مجتمعات ما قبل الصناعة فمستوى التكنولوجيا بصفة عامة لم يتطور بنفس الدرجة. وقد تنتج تلك المجتمعات أنواعا من التكنولوجيا لكنها أنواع بسيطة. وقد تستخدم أنواعا حديثة من التكنولوجيا فى بعض القطاعات أو الأنشطة لكنها لا تنتجها بل تحصل عليها من البلاد الصناعية. ويرتبط إنتاج التكنولوجيا المتطورة بالتقدم العلمى وبقاعدة تكنولوجية متطورة يمكنها أن تستوعب كل اختراع تثبت جدواه.

يقصد بالقاعدة التكنولوجية، وجود قدرات إنتاجية عامة، متخصصة فى إنتاج المعدات والأدوات وتتجمع لديها الخبرات التكنولوجية، بحيث يمكنها حل المشكلات بإدخال تطوير تكنولوجى جديد. وبهذا المعنى لا تتوجد قاعدة تكنولوجية متطورة فى مجتمعات ما قبل عصر الصناعة، لأن اعتمادها على الاستيراد يحد من قدرتها على تجربة الأفكار الجديدة وإضافة أى تحسينات أو تعديلات على تستورده، وقد لا تستطيع تطوير حتى ما اعتادت هى أن تنتجه، لأنها ليست منتجة للعلم وتعتمد على استيراده أيضا من المجتمعات المتقدمة. ولهذا تتباين مستويات التكنولوجيا المستخدمة فى الأنشطة والقطاعات المختلفة، وتظل توجد التكنولوجيا القديمة غير المتطورة فى شرائح مختلفة الاتساع فى جميع الأنشطة والقطاعات بها.

نشاهد ذلك فى مصر بوضوح، فلا يوجد قطاع إنتاجى متجانس من حيث نمط التكنولوجيا المستخدمة. وإنما توجد فى كل قطاع مشروعات صغيرة تستخدم تكنولوجيا بسيطة ومشروعات أكبر تستخدم أنواعا متباينة من التكنولوجيا. وتتباين كذلك أنماط الإنتاج، ولكن يغلب إنتاج السلع الاستهلاكية والمواد الخام. وتعمل الأنشطة الإنتاجية المتطورة كأنها جزر منعزلة لا ينتقل منها التقدم إلى غيرها من الأنشطة. ويبدو المجتمع كأنه عدة مجتمعات منفصلة، يسود كلا منها نمط تكنولوجى مختلف. وتختلف بالتالى مستويات الإنتاجية والدخل فى مختلف الأنشطة والقطاعات.

هذا مثال ملموس يوضح الفارق بين المجتمعات الصناعية وغير الصناعية، وهو يشير إلى عدم انتشار الثورة الصناعية فى كل المجتمعات. فالمجتمعات الصناعية التى حدثت فيها تلك الثورة، وحتى فى تلك المجتمعات الصناعية ذاتها يتباين مستوى التقدم التكنولوجى، حسب مراحل الثورة الصناعية التى مرت بها. وقد حدثت حتى الآن ثورتان صناعيتان، فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر على التوالى، وتبدأ الآن ثورة ثالثة، تقودها أوربا. والثورة الصناعية هى التى تنشئ القطاعات التى تنتج التكنولوجيا الحديثة. ومن ثم، لا توجد تلك القطاعات فى المجتمعات التى لم تحدث فيها ثورات صناعية.

3-4 التطور الاجتماعى

عرفنا حتى الآن أن مستوى التكنولوجيا كان الفارق الأساسى بين المجتمعات، وتظل هذه حقيقة يؤكدها السياق العام للتطور. ويمكن الربط بين التكنولوجيا وبين التطور كسبب ونتيجة، لكن التطور لا يسير فى خط مستقيم،

ولا يحدث دون انقطاع. وتتدخل هنا الظروف البشرية وعوامل أخرى لتحدد اتجاه التطور وتحدد سرعته. وبالتالى تحدث اختلافات فى المسار العام للمجتمعات، ولا يترتب على فرص التطور التكنولوجى المتماثل نفس النتائج.

4-3-1 التكنولوجيا والتطور الاجتماعى

تطورت الزراعة منذ آلاف السنين فى مجتمعات كثيرة، وكانت نشأة الحضارات العظمى فى مصر وبلاد النهرين والهند والصين، مرتبطة بذلك التطور. وهنا قد نرى ارتباطا مباشرا بين تطور التكنولوجيا وتطور الحضارة. وقد كان التطور التكنولوجى فى الماضى بطيئا للغاية، ولهذا يمكن استقراء نتائجه بوضوح. وسنرى أنه لعب دوره فى تطور المجتمعات، لكن عوامل أخرى كثيرة لعبت هى الأخرى دورها، وهذا ما يجب دراسته بعمق وتوسع. ونستطيع هنا أن نرى كيف كانت الاختيارات البشرية عاملا حاسما فى نتائج استخدام التكنولوجيا.

كانت الحرب من أهم أنواع الاختيارات، ولم تكن تحدث فى الماضى قفزات كبيرة فى تكنولوجيا صناعة السلاح إلا عبر مئات السنين. وبالتالى لم يكن تطور السلاح هو الحد الفاصل دائما بين النصر والهزيمة. وكان استخدام نفس السلاح ينتهى بانتصار طرف وهزيمة طرف آخر. وبمثل تلك الانتصارات والهزائم تقررت مصائر كثير من الأمم عبر العصور. ولم يختلف الأمر كثيرا فى العصور الحديثة، فقد ظل النصر والهزيمة فى الحروب مرتبطا بعوامل أخرى بجانب السلاح. ومع أن سرعة التطور أتاحت إدخال تحسينات سريعة فى نوعية السلاح، إلا أن التقدم التكنولوجى يعطى نفس الفرص، بحيث يمكن دائما إنتاج تقدم مضاد.

بهذا التطور تضاعف خطر الحروب، وتفوقت المجتمعات الأوربية بما لديها من تكنولوجيا السلاح وسيطرت على العالم، واقتسمته فيما بينها. وبسرعة التطور حاولت الدول الأوربية التى نهضت متأخرة إعادة تقسيم العالم لتزيد نصيبها. وكان هذا سببا فى نشوب أكبر حربين عالميتين عرفهما التاريخ. وبعد ذلك نشبت حروب التحرير التى خاضتها شعوب فقيرة فى التسلح ضد جيوش مدججة بأحدث الأسلحة وانتصرت عليها، وأبرز مثال لذلك فى القرن الماضى حرب التحرير فى فيتنام. وفى تلك الحروب التحريرية ولعبت الكفاءة البشرية الدور الحاسم[19].

توجد أمثلة بارزة أخرى فى التاريخ القديم تبين أهمية تفوق السلاح والرد البشرى عليه، ومنها قصة المواجهة بين مصر والهكسوس. كانت العجلة الحربية حين اختراعها قفزة فى تكنولوجيا التسلح ولم تكن مصر قد عرفتها، وبواسطتها تمكن الهكسوس من دخول مصر. لكن مصر صمدت ولم يستطع الهكسوس رغم تفوقهم فى السلاح احتلال الصعيد. وتمكن المصريون بعد ذلك من إعادة اختراع العجلة الحربية، وتسلح بها جيش أحمس وهزم الهكسوس فلم تقم لهم بعدها قائمة.

هناك إذن عوامل تتضافر مع التكنولوجيا لتحديد تطور المجتمعات، منها الجغرافيا التى كانت تحدد كم الموارد المتاحة لأى أمة، والتى يمكن استثمارها باستخدام التكنولوجيا. وكانت الموارد الطبيعية والبشرية معا عناصر حاسمة فى الانتصارات العسكرية، إذا تساوت قوة السلاح. وكانت الموارد التى طورتها التكنولوجيا المصرية كافية لكى تبقى مصر منارة للتقدم والحضارة آلاف السنين. وهكذا لا يمكن اعتبار التكنولوجيا سببا وحيدا للتطور لكنها أداة

[19] فى فيتام لم تستطع القوات الفرنسية ثم القوات الأمريكية أن تحسم الحرب لصالحها واضطرت للتصالح والانسحاب. أنظر: ويكيبيديا wikikedia-e

يستخدمها الناس لتطوير حياتهم. وتتباين كفاءة استخدامهم لها، وهذا عنصر ذاتى قد نسميه عبقرية الشعوب.

بتأثير هذه العوامل كان من المستحيل أن تتتابع مراحل التطور الاجتماعى الخمس، بتسلسلها التاريخى مرحلة بعد أخرى فى كل مكان. لكنها تتابعت بصفة عامة فى حياة الإنسانية، مع تراجعات أو قفزات هنا وهناك. وبرغم ما تقدمه التكنولوجيا من حلول للمشكلات إلا أنها وحدها بدون الاختيار الإنسانى لم تكن قادرة حتى الآن على حل مشكلات كبرى كالفقر، حتى فى أكثر المجتمعات تقدما. ومثلما وضعت التكنولوجيا حلولا لمشكلات الإنتاج صنعت مشكلات جديدة، فقد أنتجت التلوث وأنتجت أسلحة الدمار الشامل التى تهدد بفناء البشرية ما لم تتمكن المجتمعات الإنسانية من بناء نظم اجتماعية عادلة تحول دون نشوب الحرب.

4-3-2 قوانين التطور الاجتماعى

حتى الآن كانت قمة التطور الاجتماعى ما يسمى مجتمع ما بعد الصناعة. وكان تطور العلم الذى صاحب تطور مجتمع الصناعة، يفرض على الباحثين أن يدرسوا حركة المجتمع. ومن هنا نشأ علم الاجتماع، وكانت نشأته تطرح تساؤلات أساسية عن الفروق بين المجتمع الحديث والمجتمعات السابقة له، وعن أسباب التطور وطبيعة الصراعات، وما إذا كانت أوضاع المجتمعات فى ظل تلك الصراعات يمكن أن تتقدم إلى الأمام وتتحسن، أم أنها تتراجع وتزداد سوءا. وقد ظهرت ثلاث وجهات نظر قدمها مؤسسو علم الاجتماع الكلاسيكى.

- **كارل ماركس Karl Marx**

عاش ماركس فى لندن عاصمة البلد الذى بدأت فيه الثورة الصناعية. وكانت أبرز معالم المدينة فى حينها الانقسام الواضح إلى ما يمكن اعتباره مدينتين يعيش فى إحداهما الأغنياء فى ترف لا يتخيله معظم البسطاء، ويعيش فى الأخرى فقراء يعملون ساعات طويلة مقابل أجور منخفضة، ويعانون من سوء التغذية وانتشار الأمراض، ويعيشون فى بيوت فقيرة فى أحياء عشوائية وينام كثير منهم فى الشوارع. وكان أول سؤال يفرض نفسه: لماذا كل هذا الفقر فى مجتمع به كل ذلك الغنى؟

كان هناك تساؤل آخر لا يقل أهمية، عما إذا كان هذا الوضع يمكن أن يتغير. وكان فكر ماركس يتركز حول الصراع الاجتماعى. وهذا الصراع يتخذ أشكالا عديدة، فقد يكون صراعا بين أفراد لأسباب كثيرة، وقد يكون بين مدن متنافسة، أو بين أمم تخوض الحروب. وفيما يخص ماركس كان الأهم هو الصراع بين شرائح المجتمع حول اقتسام عائد الإنتاج، حيث تفوز قلة من الناس، تتركز فى أيديها ثروة المجتمع الصناعى، وهى القلة التى تملك المصانع والمزارع وغيرها من وسائل الإنتاج، أى الرأسماليون.

يدور الصراع هنا بين العمال والرأسماليين، لأن هدف الرأسماليين زيادة أرباحهم لأقصى حد ممكن، وهو ما يتحقق بخفض الأجور لأدنى حد ممكن. وفى هذا الصراع يلعب الاغتراب دوره، وهو ينشأ من واقع أن العمال لا يملكون أدوات العمل، ولا يملكون ما ينتجونه، وليس لهم قرار فيما يؤدونه من عمل، فهم غرباء عن واقعهم. هنا يرى ماركس أن الصراع حتمى ولن ينتهى إلا بإنتهاء وجود النظام الرأسمالى، وقيام نظام اشتراكى. ويكمن الفرق بين النظامين فى طبيعة العلاقة بين أطراف عملية الإنتاج. وهى فى الرأسمالية

علاقة صراع، لأن وسائل الإنتاج لا يملكها المجتمع كله بل يستحوذ عليها بعض أفراده. أما فى الاشتراكية فملكية وسائل الإنتاج تئول للمجتمع وبذلك يختفى الصراع، وتبنى علاقات الإنتاج على التعاون.

هذا الفكر يجد ردا عليه فى القول بأن الملكية الفردية حق طبيعى، وأن الأغنياء حققوا ثروتهم لأن لديهم مهارات ودوافع للعمل ليست لدى الفقراء. لكن ماركس يرى ذلك تزييفا لوعى الناس، يعزو البؤس إلى الفروق بين مهارات الأفراد، ويجعل الأفراد بالتالى مسئولين عن بؤسهم. بهذا التفسير يصبح الفقر حتميا بينما يرى ماركس أنه نتاج عملية اجتماعية تنشأ عن وجود النظام الرأسمالى. ويقول ماركس أن هذا النظام تطور خلال التاريخ ولم يكن موجودا فى الماضى، ووجوده بالتالى ليس من طبيعة الأمور، ومن الممكن أن يتغير.

هكذا كانت رؤية ماركس فيما يتعلق بتطور المجتمعات. كان يرى أن التكنولوجيا لها دور فى التطور الاجتماعى لكنه دور جزئى، وأن الدور الأساسى يلعبه الصراع بين شرائح المجتمع. وكان يرى أن هذا الصراع لم يوجد فى مجتمع القنص والصيد، حيث الفريسة والنباتات موارد طبيعية متاحة للجميع، ولا يملكها أحد. من جانب آخر، كانت المهارات الإنتاجية وأدوات العمل بسيطة ومتاحة أيضا للجميع، وكانت إنتاجية العمل منخفضة، وناتج العمل لا يكاد يشبع احتياجات صاحبه. وكان على الفرد أن يتدبر معيشته يوما بيوم وأن يحصل على غذائه وجبة بوجبة، فما إن ينتهى من وجبة حتى يسعى لتدبير الوجبة التالية.

لهذا لم يوجد فى تلك المجتمعات البدائية ما يبرر الصراع، ولم ينشأ الصراع إلا حين زادت إنتاجية العمل، وصار ناتج العمل يمكن أن يفيض عن احتياجات صاحبه. حدث هذا مع تطور الرعى وبدايات الزراعة، وهنا بدأ

الصراع للاستيلاء على ذلك الفائض. كان هذا مبررا لنشأة العبودية، فمن يمتلك العبد يمتلك ناتج عمله، ويستطيع أن يعطيه الحد الأدنى من الطعام بما يكفى فقط لإبقائه على قيد الحياة كى يواصل العمل فى خدمة سيده. وبعدا إشباع ذلك الحد الأدنى يبقى فائض من الناتج يعتبره إلسيد حقا له ويستولى عليه. وقد بدأت العبودية باقتناص الأسرى وتحويله إلى عبيد.

كان امتلاك العبيد، يعفى السادة من العمل غذائهم وسائر احتياجاتهم. وكان العبيد أنفسهم بضاعة يمكن بيعها وشراؤها، وكانوا بذلك جزءا من ثروة السادة، وكان اقتناؤهم تجارة رائجة. كان هذا بداية ظهور الطبقات الاجتماعية، والصراع بين الطبقات، فقد كان الصراع حتميا بين السادة والعبيد. وباتساع الزراعة تقلص نظام العبودية، وتحول العبيد إلى أقنان يفلحون أرض النبلاء الإقطاعيين، والقن لا يباع ولا يشترى لكنه يرتبط بالعمل فى الأرض، وينتقل معها إذا آلت لنبيل آخر. وهكذا لم يكن وضعه الاجتماعى أفضل كثيرا من وضع العبيد.

بعد هذا تفكك النظام الإقطاعى وحلت محله الرأسمالية، وكانت بداية ذلك نمو التجارة والحرف ونمو المدن، ثم تحول التجار إلى رأسماليين بنمو الصناعة. وتعتبر الرأسمالية آخر النظم الطبقية التى ظهرت فى التاريخ، وفيها يستمر الصراع وتتغير فقط أطرافه، فيدور بين الرأسماليين والعمال. ولم يكن التطور يحدث فى كل مكان بهذا التسلسل وبترتيب تلك الحلقات بالضرورة[20]، والمهم هو ظهور النظم الطبقية بعد تطور تكنولوجى أدى إلى ارتفاع إنتاجية العمل بما يسمح بوجود فائض من ناتج العمل يسمح بنشأة طبقات ذات مركز

[20] لا يوجد فى التاريخ المصرى ما يشير إلى نظام عبودى من النوع الذى عرف فى اليونان وروما. ولا يوجد ما يشير إلى نظام إقطاعى على النمط الأوربى. وتقول بعض الدراسات أن مصر تطورت فى إطار ما سماة ماركس نمط الإنتاج الآسيوى. وهذا اجتهاد نظرى يمكن الرجوع إليه فى (أحمد صادق سعد، ب.ت)

اجتماعى أعلى تستولى على هذا الفائض.

يتصور ماركس أن ينتصر العمال فى صراعهم مع الرأسماليين ويقيموا النظام الاشتراكى الذى كان يبشر به. وهو يرى أن ذلك التحول لا بد أن يكون عن طريق الثورة[21]، لأن الرأسماليين لن يتنازلوا عن امتيازاتهم طواعية، كما يتصور أن تكون تلك الثورة نهاية النظم الطبقية. وبذلك ينتهى الصراع بين شرائح المجتمع لأول مرة فى التاريخ منذ ظهور العبودية. ويعتمد هذا الانتصار على مستوى وعى الطبقة العاملة، بحيث يقام نظام اشتراكى ينقل وسائل الإنتاج إلى الملكية العامة، ولا يسمح بأن يئول فائض الإنتاج مرة أخرى إلى طبقة مستغلة.

السؤال هنا من أين يأتى الوعى؟ وفقا للفلسفة المادية الماركسية، يتشكل الوعى بناء على فهم الواقع المادى. فالعالم المادى يتشكل أولا، ويتشكل الوعى بعد ذلك بناء عليه. والخبرة الناشئة عن الاحتكاك بالوقائع اليومية هى الوسيط الذى يتشكل الوعى من خلاله، فبهذه الخبرة نفهم العالم (أنظر: أحمد القصير، 2012، الفصل الأول). ولكن ها هو الوعى بعد أن يتشكل يعيد تشكيل العالم.

- **ماكس ويبر Max Weber**

كان ماكس ويبر دارسا للتاريخ والاقتصاد والدين والقانون. وقد أدرك أثر التكنولوجيا والاقتصاد فى تطور المجتمعات، لكنه اختلف مع تحليل ماركس المادى، فكان يرى أن للعقائد والقيم قدرة على التغيير. وهكذا لم ير المجتمع الصناعى بوصفه نتاجا للتكنولوجيا والرأسمالية بل نتاج طريقة جديدة فى التفكير، وكأن الوعى هو نقطة البداية فى تشكل العالم. فمن أين يأتى الوعى؟

[21] يمكن الرجوع إلى (على ليلة، 1991) لمزيد من التفصيل عن تصور الماركسية لانهيار النظام الرأسمالى.

هنا يلاحظ ماكس ويبر ارتباط التقدم الأوربى بتغير العقيدة الدينية، وما يسميه الاتجاه نحو العقلانية. وبالطبع قد تختلط الأفكار، وفى هذا السياق صاغ فكرة النمط الفكرى النقى Ideal Type، أى النمط كما تمت صياغته فى الأصل وقبل أن تختلط به أفكار أخرى. وقد قارن بين أنماط نقية بروتستانتية ويهودية وهندوسية وبوذية.

على هذا الأساس، لم يصنف المجتمعات حسب مستوى التكنولوجيا أو نوعية نظم الإنتاج، بل على أساس نهجها الفكرى فى النظر إلى العالم. واستنتج أن المجتمعات القديمة كانت تتمسك بالتقاليد بينما يتمسك المجتمع الحديث بالعقلانية. وكان يعنى بالتقاليد ما يرثه جيل عن جيل من مشاعر ومعتقدات، وبهذا كان الماضى هو ما يوجه المجتمع التقليدى. والتقاليد إذن هى مصدر لنوع من المعلومات، تتشكل على أساسه السلوكيات. والمشكلة هنا بالنسبة لنا، من أين تنشأ التقاليد أصلا. لكن ويبر لا يتوقف عند هذا التساؤل بل يتخطاه إلى عقلانية المجتمع الحديث، ليقول أن تلك العقلانية تدفع الناس إلى إجراء حسابات واقعية لمعرفة أفضل الطرق لتحقيق الأهداف، دون حساب للعواطف.

من هذه الزاوية يعتبر ماكس ويبر أن التحول الرأسمالى وتقبل التكنولوجيا الحديثة نوع من العقلانية. ويرى أن المجتمعات المختلفة لا تضفى على التكنولوجيا نفس القيمة، فقد يراها مجتمع قليلة الأهمية ويعارضها مجتمع آخر لأنها لا تتسق مع التقاليد. ومن هذا النوع الأخير جماعات صغيرة تعيش حتى فى البلدان المتقدمة فى أوربا وأمريكا. وقد استنتج أن الرأسمالية تطورت فى المناطق التى سادتها روح البروتستانتية، وقد بلورها حنا كالفين[22] John

[22] عاش فى الفترة 1509–1564

Calvin الذى لم يطلب من الناس الإعراض عن الدنيا، ولم يحتقر الثروة المادية بل كان يراها نعمة من الله للمؤمنين. وكان التقشف البروتستانتى فضيلة لأنه يزيد الثروة، وكانت التكنولوجيا موضع ترحيب إذ تساعد على استخدام الثروة بكفاءة (ماكس ويبر Max Weber، 2003، 1905).

هذه العقلانية كما يرى ماكس ويبر، هى التى أطلقت الثورة الصناعية وطورت الرأسمالية وحددت ملامح العصر الحديث. ومن بين تلك الملامح أن تحل محل الأسرة فى أداء الأعمال والخدمات بكفاءة، مؤسسات مجتمعية كمؤسسات التعليم والصحة، والمؤسسات السياسية والدينية والاقتصادية. وبهذه العقلانية تطورت أيضا المنشآت الكبيرة، لأنها أكثر كفاءة، وساد التخصص والانضباط لنفس السبب. وبنفس العقلانية صار الناس يقدرون قيمة الوقت، وصار الفرد يلقى تقدير المجتمع، لا بانتمائه العائلى بل بناء على كفاءته وقدراته. وهكذا صار المجتمع الحديث أفرادا لا تتحدد مهامهم من خلال الاهتمام الشخصى الذى تفرضه القرابة أو المعرفة الشخصية، بل تتحدد تلك المهام على أساس الكفاءة.

فى النهاية كان ماكس ويبر يتفق مع ماركس فى تقديره لمدى كفاءة الرأسمالية الصناعية، وتقديره لخطورة مشاعر الاغتراب التى يغذيها. لكنه اختلف معه فى تقديره لمصدر الاغتراب فهو لا يرى أنه ناتج عن غياب المساواة، بل عن نمو البيروقراطية. وقد رصد كيف تتعامل البيروقراطية مع الناس كحالات وأرقام لا كأفراد لهم شخصياتهم المميزة. ورصد أثر ذلك فيما يحيط العمل فى المؤسسات الكبيرة من قواعد روتينية تتحكم فى أداء الفرد، كما رأى المجتمع منظومة واسعة تلعب البيروقراطية فيه دورها، فتطبق المزيد من القواعد لتنظيم كل شئ وتهدد بسحق الروح الإنسانية.

هكذا كان ماكس ويبر فى نهاية حياته شديد التشاؤم، لا تختلف كلماته عن كلمات ماركس، فوصف المجتمع بأنه يستعبد الفرد ويحوله إلى مجرد ترس فى آلة (ويبر Weber، 1978، 1922)

- **إميل دوركاييم Emile Durkheim**

هذا مهندس آخر من مهندسى علم الاجتماع الكلاسيكى، رأى المجتمع شيئا مستقلا عن الأفراد، فقد وجد قبل ميلادنا بزمن طويل، وله علينا حقوق أثناء حياتنا، وسيعيش طويلا بعد موتنا. رأى أيضا أن أنماط السلوك الإنسانى حقائق اجتماعية قائمة بذاتها، مستقلة عن الأفراد، وكذلك رأى فى القيم والمعايير الثقافية والمعتقدات الدينية حقائق اجتماعية مستقلة هى الأخرى. وبهذا يشكل المجتمع أفكارنا وأفعالنا، ومن هنا لا يمكن فهم المجتمع إذا اقتصرنا على دراسة الأفراد، فكل تجمع من الأفراد يمثل ما هو أكبر من مجموع أفراده.

نشعر بتأثير المجتمع علينا كلما لاحظنا قواعد النظام التى تحكم حياتنا، وكلما تحكمنا فى مشاعرنا فى مواجهة الإغراءات. وكلما تأملنا ذلك لاحظنا أن هذه القواعد والضوابط لها أثر يمتد إلى أبعد من أشخاصنا، يمس المجتمع ككل. هذه الضوابط إذن لها وظائف، ولكل نوع من السلوكيات وظيفته. حتى الجريمة، لها وظيفة، فهى تجسد معنى الضرر الذى يحيق بالمجتمع، ومعنى المعيار الأخلاقى لرفض الجريمة. لهذا يرفض دوركاييم أن يعتبر الجريمة مرضا اجتماعيا، ويرى وجودها أمرا عاديا، إذ لا يوجد مجتمع بلا جريمة.

المجتمع إذن من وجهة نظر دوركاييم هو ثقافة موجودة بداخلنا وليس شيئا خارج ذواتنا فقط، لأننا نختزن بداخلنا الحقائق الاجتماعية فتتشكل بها أفكارنا ومشاعرنا وسلوكنا، ومن هذا الطريق ينظم المجتمع سلوكنا. ويرى

دوركاييم أن هذه ضوابط ضرورية لأن احتياجات الإنسان لا يمكن إشباعها، وكلما أشبعت حاجة تولدت بداخله حاجة أخرى. وإذ يقلل المجتمع الحديث ما يفرضه على حرية الفرد من قيود، فإن دوركاييم يحذر من تآكل الضوابط الاجتماعية. وهذا التآكل أكثر وضوحا فى سلوكيات المشاهير، حيث تؤدى الشهرة إلى تآكل علاقاتهم الأسرية واختلال روتين الحياة المعتاد، وبالتالى يتراجع الدعم الذى توفره الضوابط الاجتماعية.

هنا تختلف المجتمعات القديمة عن المجتمع الحديث، ويرى دوركاييم مثله مثل ويبر أن التقاليد كانت القوة التى يعتمد عليها تماسك المجتمع القديم. وكان يسمى ذلك التماسك "التضامن الميكانيكى" لأنه ينشئ شعورا تلقائيا بالانتماء. وبينما يضعف أثر التقاليد باتساع نطاق حرية الفرد فى المجتمع الحديث، يضعف التضامن الميكانيكى بالتالى. وينشأ لذلك نوع آخر من التضامن يسميه "التضامن العضوى"، يبنى على التخصص، فحين يؤدى كل فرد عملا مختلفا وتتكامل أعمال الأفراد فتصبح حياة الفرد معتمدة على عمل أفراد آخرين لا يعرفهم، وترتب حياة آلاف الأفراد معا. هذا التخصص أو "تقسيم العمل" هو مفتاح التغير عند دوركاييم.

ينشأ التخصص نتيجة للتطور التكنولوجى، فتنفصل مهام صغيرة وتتحول إلى نشاط مستقل، ويتزايد هذا مع استمرار التطور. وبهذا يتغير تركيب المجتمع لأنه تنشأ فيه أنشطة جديدة، وتخصصات جديدة. ويزداد اعتماد المجتمع على ما يسميه دوركاييم التضامن العضوى. وهكذا يقل اعتماد الحداثة على الأخلاق ويزيد اعتمادها على ما ينشئه تقسيم العمل من احتياجات متبادلة. وتضعف بذلك قوة التقاليد أو الثقافة أكثر فأكثر. وهذه هى المشكلة التى تواجه دوركاييم إذ أن تزيد قوة التكنولوجيا والحريات الشخصية على

حساب التراجع الأخلاقى، فيزيد خطر انهيار الضبط الاجتماعى. ومن هنا كان لديه، مثله مثل ماركس وويبر شكوك حول مستقبل المجتمع. لكنه بين الثلاثة كان أكثرهم تفاؤلا، بما يراه من أمل فى أن تحل محل الضوابط التى كان المجتمع يفرضها علينا ضوابط أخرى نفرضها نحن على أنفسنا (أنظر دوركاييم Durkheim، 1974).

4-4 لمحة عن الثورة الصناعية

فى سياق التطور الاجتماعى يشار إلى الثورات التكنولوجية باعتبارها طفرات فى حركة التطور. وقد كان التطور التكنولوجى بطيئا جدا فى العصور القديمة. ومن الطفرات التى ميزت الثورات التكنولوجية التاريخية اكتشاف النار، وبداصنع الأدوات الحجرية، واستخدام الخشب، واكتشاف المعادن، واختراع العجلة. أما الطفرات التكنولوجية التى ميزت الثورات الصناعية الحديثة فهى صناعة المحركات وتطوير وسائل الاتصال. وتتميز كل ثورة صناعية حديثة باعتمادها على مصدر للطاقة ووسيلة للاتصال.

الثورة التكنولوجية تختلف عن الثورات السياسية، فهى تحدث خلال فترة زمنية طويلة نسبيا ولا تتكاثف وقائعها خلال أيام أو أسابيع أو شهور. وهكذا استغرقت الثورة الصناعية الحديثة الأولى مائتى عام (دافيد لاندز David Landes، 1998)، وقد اكتملت كثورة فى القرن الثامن عشر، حين اكتملت عناصرها. وكان مصدر الطاقة فيها هو الفحم وكان يستخدم لتسخين الماء وتوليد الطاقة البخارية، التى اعتمد عليها المحرك البخارى. وكانت وسيلة الإتصال فى هذه المرحلة هى الطباعة. وكان اختراع المطبعة سابقا للمحرك البخارى بأكثر من قرنين من الزمان، وهذه فترة زمنية تبدو طويلة، لكنها فى

عمر البشرية قصيرة جدا.

ظهر البترول واستخدم فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر. واكتشفت الكهرباء، وكانت هذه بذور الثورة الصناعية الثانية. كان مصدر الطاقة فى هذه المرحلة هو البترول، وقد اعتمد عليه محرك الاحتراق الداخلى، وأما وسيلة الاتصال الجديدة فكانت التلغراف. وتطورت فى هذه الثورة حلقات تكنولوجية أخرى، فظهر المحرك الكهربائى، والتليفون، والإذاعة والتليفزيون، وتطورت الكيمياء والتكنولوجيا النووية، وتطورت الإلكترونيات، وبنى عليها تطور الحاسبات ثم تطور الإنترنت. وتطورت عناصر استخدام الطاقة الشمسية وما يسمى عموما بمصادر الطاقة المتجددة. وكانت هذه تعتبر طفرات ومراحل نوعية لتلك الثورة الصناعية (أنظر: بيكانيكى Bicanice، 1964)

تبين لاحقا، أن عناصر ثورة صناعية ثالثة قد تطورت واكتملت. الطاقة فى هذه الثورة الجديدة هى الكهرباء، ومصادرها هى مصادر الطاقة المتجددة. أما وسيلة الاتصال فهى الإنترنت. وقد أعدت خطط للخروج من عصر البترول، بتحويل كل وسائل النقل للعمل بالكهرباء، باستخدام وحدات جديدة لتوليدها تعتمد على الهيدروجين. وتقضى الخطط التى وضعت حتى الآن، بتحول جميع المبانى المقامة إلى محطات صغيرة لتوليد الكهرباء من الطاقة الشمسية. وتم تصميم شبكة شبيهة بشبكة الإنترنت لتبادل الطاقة المتولدة فى تلك المحطات الصغيرة، واستخدام الهيدروجين كوسيط لتخزين الطاقة (جيريمى ريفكين Rifkin، 2011).

صدر أول إعلان عن هذه الثورة من البرلمان الأوربى فى يوليو 2007، وأعلن عن أول خطة للتنفيذ فى مايو 2012 تحت عنوان "تجاوز التقشف" Beyond Austerity تطالب ببناء أعمدة خمسة حاسمة تصنع البنية

الأساسية للثورة الصناعية الثالثة من الآن وحتى 2050. (أنظر: البرلمان الأوربى European Parliament، 2007؛ أنظر أيضا: المفوضية الأوربية، European Commission، 2012). والأعمدة الخمسة هى:

- التحول إلى الطاقة المتجددة؛
- تحويل جميع المبانى فى كل قارة إلى محطات صغيرة للطاقة لاستخلاص الطاقة المتجددة فى مواقعها؛
- نشر تكنولوجيا الهيدروجين ووسائل التخزين فى كل مبنى وعلى امتداد البنية الأساسية لتخزين الطاقات المتولدة بصورة متقطعة؛
- استخدام تكنولوجيا الإنترنت لتحويل شبكة الطاقة فى كل قارة، إلى شبكة دولية للطاقة تعمل مثل شبكة الإنترنت تماما (حين تتولد كميات صغيرة من الطاقة فى ملايين الوحدات المبنية فى مواقعها المحلية، فسيمكنها بيع ما يفيض لديها ثانية إلى الشبكة ليتقاسم الجميع كهرباءهم مع جيرانهم فى القارة)؛ و،
- تحويل أسطول النقل إلى مركبات تعمل بالكهرباء وبخلايا الوقود يمكنها بيع وشراء الكهرباء عبر شبكة طاقة ذكية تفاعلية قارية.

لا نتوقع أن يمر زمن طويل قبل أن تفاجئنا وقائع تلك الثورة، فالتطور الآن أسرع بكثير مما كان فى أى زمن مضى. لقد تم تصميم السيارات الجديدة والخطط تنفذ الآن لبدء إنتاجها على نطاق واسع اعتبارا من عام 2015 (أنظر ويكيبيديا Wikipedia-f). وأبعد من ذلك، تم تصميم محرك طائرة تطير بالهيدروجين، بسرعة 18.000 ميل فى الساعة (توماس مور Thomas Moore، 2013) وقد تم صنع نموذج لهذا المحرك وتم اختباره بالفعل وثبتت صلاحيته، وتم حل مشكلات تكنولوجية كثيرة أثناء تصميمه وصناعته.

هذه الثورة الجديدة تسمى ثورة خضراء، ويسمى الاقتصاد الذى يبن عليها اقتصادا أخضر لأنه ينهى التلوث الذى ينتجه احتراق الوقود الأحفورى (البترول والفحم). والسؤال الكبير، إلى أى مدى سوف تتغير المجتمعات بهذه الثورة الجديدة؟ وهل يستطيع علم الاجتماع أن يتابع تلك التطورات الجديدة، ويدرس تأثيرها ويزيد وعى المجتمع بذلك التأثير؟ مهما يكن، فعلى الباحثين أن يستعدوا لإعادة بناء علم الاجتماع، ليتسق مع التطور العلمى والتكنولوجى القادم.

5

الثقافة

تختلف المجتمعات البشرية فى أمور كثيرة، بعضها عادات وتقاليد بسيطة، مثل أنواع الثياب أو أساليب التحية، وبعضها عميق يتعلق بالمعتقدات والمعايير الأخلاقية والذوق والموسيقى والفنون. وبين هذا وذاك قد توجد اختلافات فى الرياضات المفضلة أو أنواع الطعام أو أساليب إعداده وغير ذلك. وقد يعزو البعض هذه الاختلافات إلى ما يسمونه طبائع البشر، بينما هى ليست طبائع فطرية وإنما هى اختلافات صنعها البشر أنفسهم خلال ممارسات تاريخية طويلة. أما الاجتماعيون فيرون ذلك اختلافات فى الثقافة.

5-1 مفهوم الثقافة

فى الأحاديث الدارجة يتحدث الناس عن الثقافة باعتبارها كم التحصيل المعرفى الذى يميز البعض. لكن الثقافة بمعنى آخر، هى القيم والمعتقدات والممارسات التى تشكل أسلوبا أو طريقة للحياة. هذا هو المعنى الاجتماعى للقافة، وبهذا المعنى تنقسم الثقافة إلى قسمين، ثقافة غير مادية تتمثل فى بناء فكرى من القيم والمعتقدات، وثقافة مادية تتمثل فى أشياء ملموسة مثل نوع الملابس والفنون والطعام وغير ذلك مما يميز حياة الإنسان اليومية. والثقافة بهذا المعنى هى التى توجه حياة الناس وتحدد سلوكياتهم.

يختلف الإنسان فى هذا عن الحيوان، فالحيوانات تتصرف بالغريزة أى وفق احتياجات بيولوجية لا يمكنها التحكم فيها. ولهذا لا يختلف سلوك الحيوانات كثيرا من مكان لآخر، بينما تختلف سلوكيات الإنسان اختلافا كبيرا من مجتمع إلى مجتمع ومن إقليم إلى إقليم، لأن الإنسان كائن عاقل يصنع

ثقافته. وقد تكونت الثقافة الإنسانية عبر تاريخ طويل، لكننا دراستنا للثقافة لا تتناول إلا جزءا قصير جدا من ذلك التاريخ. وسندرك إلى أى حد هو قصير إذا راجعنا تاريخ النوع الإنسانى.

ظهر الإنسان كنوع من الثدييات العليا Primates منذ 12 مليون سنة وتميز بأنه كائن ذكى، يمشى على قدمين بقامة معتدلة، وبأنه اجتماعى وعاطفى، يعيش فى جماعات متضامنة، ويستطيع استخدام يديه لأداء أعمال ودقيقة. وبهذه القدرة تميز عن الحيوان بأنه لا يستخدم الأدوات فقط بل يصنعها. وبهذا صنع ثقافته، وبدأ يصنع أولى عناصرها الأساسية كعناصر مادية، منذ 2 مليون سنة تقريبا. وخلال تلك الرحلة استخدم النار وصنع الأدوات والأسلحة والبيوت والملابس البسيطة، وطور حياته تدريجيا، واختزن خبراته الثقافية ونقلها من جيل إلى جيل، لكى يبدأ كل جيل بما أنتجه الجيل السابق له.

مع ذلك لم يظهر ما نسميه الحضارة إلا منذ 12.000 سنة فى العراق ومصر والصين. أما الحضارة الصناعية فعمرها الآن لا يزيد عن ثلاثمائة عام، هى جزء من الثانية قياسا بعمر الأرض. وبذكر الحضارة يلزم أن نميز بينها وبين الثقافة. ووجه الاختلاف أن الحضارة أكثر وحدات الثقافة اتساعا وعمومية. وهى أقل عددا من الجماعات الثقافية لأنها تشمل تجمعات إنسانية أكبر، وتعيش عمرا أطول دون حدود زمنية قاطعة. ويعتبر الدين من المكونات الحضارية البارزة. وقد تطور الفكر الدينى عبر فترة أطول كثيرا مما نتصور. ومن الآثار الإنسانية القديمة التى يمكن تفسيرها بأنها ذات طبيعة دينية، ما يرجع تاريخه إلى 300.000 – 400.000 سنة قبل الميلاد (ميرسيا إلياد، 1987/1986، ج 1).

5-2 عناصر الثقافة

تختلف الثقافات البشرية كثيرا من تجمع إنسانى لآخر، إلا أنها جميعها تبنى من خمسة عناصر هى: الرموز، واللغة، والقيم، والمعايير، والثقافة المادية.

5-2-1 الرموز

الرمز أى شئ يحمل معنى محددا يفهمه الشركاء فى نفس الثقافة. ومثال الرموز الصفير ورفع إصبع ما أو تكوير قبضة اليد فى مواجهة الآخرين، وهز الرأس أو غمز العين بطرق معينة. هذه رموز تكتسب معانى محددة لدى من يستخدمونها، وبمثل تلك الرموز وغيرها يضفى الإنسان معانى على الأشياء. والحيوان يشترك مع الإنسان فى أنه يستشعر ما فى البيئة المحيطة من حوله، لكن هذا شعور غريزى، أما الإنسان فهو وحده الذى يصنع المعانى، ويحول العناصر المادية إلى رموز.

مثل هذه الرموز تربط الأفراد بمجتمعهم، ويشعر الفرد بالغربة فى مجتمع لا يفهم رموزه، ويشعر الناس بغربة شخص آخر لا ينتمى لمجتمعهم، حين يأتى أفعالا لا يفهمونها وقد تكون بالنسبة لهم غير مقبولة، وقد تكون مهينة، فتسبب ما يسمى الصدمة الثقافية. والرموز ليست كامنة فى الأشياء بل تدور حولها، ولهذا تكتسب معانى مختلفة فى الثقافات المختلفة، وقد تختلف معانيها لدى جماعات مختلفة فى البلد الواحد، وقد تتغير رموز نفس المجتمع خلال الزمن. ودراسة الرموز تسمى العلاماتية، أو السيميوتيقا Semiotics.

5-2-2 اللغة

اللغة منظومة من الرموز يستخدمها أفراد المجتمع للتواصل فيما بينهم، وتتخذ شكل كلمات تنطق وتكتب. وتختلف الكلمات من مجتمع لآخر كما تختلف طريقة ترتيبها وكتابتها. تكتب بعض اللغات من اليمين إلى اليسار كالعربية، وتكتب لغات أخرى من اليسار إلى اليمين كاللغات الأوربية، وهناك أيضا لغات تكتب من أعلا لأسفل كلغات شرق آسيا. واللغات تنمو وتموت أيضا، وقد انقرضت عبر التاريخ مئات اللغات. وفى العالم الآن 6909 لغة حسب آخر دراسة أجريت عام 2009 (لويس Lewis، 2009)، وهى مصنفة إلى 121 عائلة لغوية. وأكثر تلك اللغات انتشارا الصينية والإنجليزية والأسبانية.

ربما كانت لغات أخرى كثيرة قد انقرضت فى الماضى، حيث كان التنوع اللغوى أكبر بكثير، بدليل أن فيما تبقى من المجتمعات القديمة، توجد الآن حوالى 300 لغة بين الهنود سكان الأمريكتين الأصليين، وحوالى 250 لغة لدى سكان استراليا الأصليين. وما زالت لغات كثيرة مهددة بالانقراض، حيث نصف عدد اللغات المشار إليه يتحدثه أقل من 3000 شخصا. وبعض اللغات يقاوم الفناء، ويحاول أصحابها إحياءها كاللغة العبرية. وقد ظهرت أخيرا فورة إثنية، تعمل فيها كثير من الجماعات على الحفاظ على لغاتها. وفى أوربا مكتب للغات قليلة الاستخدام يعمل على الحفاظ عليها[23].

لا غرابة أن آلاف اللغات، ففى الدنيا آلاف المجتمعات، واللغة تحتوى

[23] المكتب الأوربى للغات قليلة الاستخدام، European Bureau for Lesser Used Languages (EBLUL) وهو يصدر نشرة باسم Contact وله موقع عنوانه www.//eblul.org.

على الموروث الثقافى لكل مجتمع وتنقله من جيل إلى جيل ليحافظ كل مجتمع على وجوده. وقد ظلت اللغة تنتقل ويتم تعلمها من خلال الحديث، ولم تبدأ كتباتها إلا منذ خمسة آلاف عام. وطوال تلك الفترة كان قليل من الناس من يعرفون القراءة والكتابة، ولم تنتشر الكتابة إلا مع تقدم الصناعة. وما زالت مشكلة القضاء على الأمية قائمة فى معظم المجتمعات الإنسانية (بيانات الأمم المتحدة UNDATA، 2013). وفى مصر كانت نسبة الأمية بين الفئة العمرية 15– 24 سنة حسب تعداد 2006 حوالى 18% بين الإناث، وحوالى 12% بين الذكور، بمتوسط 15% تقريبا (المرجع السابق).

هل يؤدى اختلاف اللغة إلى اختلاف فهم العالم؟ كان هذا موضوعا للدراسة، وقد توصل سابير Edward Sapir وبنيامين هورف Benjamin Whorf إلى الإجابة عن ذلك بنعم. وما يعرف الآن باسم فرضية سابير_هورف تقول أن الناس يفهمون العالم من خلال عدسة اللغة. ويتضمن ذلك مبدأين، أولهما التقريرية اللغوية linguistic determinism وتعنى أن اللغة تحدد طريقتنا فى التفكير. والمبدأ الثانى هو النسبية اللغوية linguistic relativity ويعنى أن ما تحدده لغة قد لا تحدده لغة أخرى ماكيونيس وبلامر Macionis and Plummer، 2008: 134). ومثال ذلك ما وجده سابير من أن لدى بعض الجماعات، كلمة واحدة تعبر عن كل شئ يطير بخلاف الطيور، بينما لدى جماعة أخرى كلمات كثيرة تعبر عن معنى الجليد.

لدينا أمثلة كثيرة نعرفها فى لغتنا العربية تؤيد ذلك أيضا، حيث توجد عشرات الكلمات التى تعنى الأسد، وكلمات أخرى تعبر عن أكثر من معنى. كلمة الرسم مثلا تعنى الصور المرسومة، كما تعنى الأثر الباقى من ماضى الزمان. وفى لغات كثيرة كلمات لا مقابل لها فى لغات أخرى. ولهذا تستعير

اللغات من بعضها البعض، وحتى أكثر اللغات انتشارا وهى اللغة الإنجليزية استعارت من الفرنسية واستعارت أيضا من العربية. ولدينا فى العربية قد لا نجد مقابلا لبعض المصطلحات الحديثة ويحاول مجمع اللغة العربية أن يحل تلك المشكلات.

5-2-3 القيم والمعتقدات

القيم Values هى مقاييس لما يعتبره المجتمع طيبا وما يعتبره خبيثا، وهى بالتالى مقاييس للسلوك. أما المعتقدات Beliefs فهى ما يؤمن المجتمع بأنه حقائق صحيحة وما يعتبره خاطئا. وتشكل القيم والمعتقدات قلب عالمنا الأخلاقى، وتختلف القيم الأساسية من مجتمع لآخر. هكذا يوجد اختلاف واضح بين القيم والمعتقدات المصرية والأوربية على سبيل المثال. ذلك لأن كل مجتمع يطور منظومة قيمه ومعتقداته خلال تاريخه الذى تختلف الوقائع والأحداث التى تصنعه عما يصنع تاريخ المجتمعات الأخرى.

تؤثر المعتقدات فى منظومة القيم، وحين يوجد تقارب فى المعتقدات يوجد بالتبعية تقارب فى القيم. وفى المجمعات الإسلامية مثلا توجد قيم مشتركة تتعلق بالأسرة ومفاهيم الأخلاق. وهذا ناتج عن الدين كعنصر مشترك، وهو دليل على أهمية الدين فى البناء الثقافى. لكن الدين لا يمثل العنصر الوحيد فى ذلك البناء، ولهذا تختلف القيم بين المجتمع المصرى وبين دول إسلامية أخرى، ما زالت ترفض اختلاط النساء بالرجال. وتوجد كذلك اختلافات داخل المجتمع الواحد وإن اتفق أفراده فى المعتقدات الأساسية، ويمكننا أن نلاحظ هذا فى مصر أيضا، حيث توجد فروق إقليمية بين المدن الكبرى وبين الريف، وبين الوجهين البحرى والقبلى.

يحدث هذا لأن القيم ليست ثابتة بل تتطور، وهو ما يحدث تدريجيا، حيث يتبنى بعض الناس قيما جديدة، تنتشر بسرعة أو ببطء حسب مدى ارتباطها بالتقدم الاقتصادى للمجتمع، وبالعناصر الأخرى التى تؤثر على هذا التقدم. ونلاحظ ذلك أوضح ما يكون فيما يضفيه الناس من قيمة على عمل المرأة ومظهرها وعلاقتها بالرجال فى المجتمعات المختلفة. ولما كان وضع المرأة هذا مرتبطا بالتقدم الاقتصادى، فقد صار ذلك قيم عامة، تشترك فيها المجتمعات بدرجات مختلفة حسب مدى التقدم الذى حققته. وهى كقيمة عامة صارت موضوع اهتمام عالمى.

بنفس الآليات صارت توجد قيم عالمية كثيرة تشترك فيها كل المجتمعات، بعد أن تطور العالم فى العصر الحديث وزاد الاتصال والتبادل بين أجزائه. وهكذا تتنشر قيم الحرية والمساواة والعدالة، وظهرت معتقدات مشتركة تتعلق بحقوق الفرد وحقوق الطفل والمرأة. وهذا المشترك العالمى يتسع تدريحيا مرتبطا بانكماش الفروق فى مستويات التقدم، بين المجتمعات التقليدية ومجتمعات الصناعة.

5-2-4 المعايير

المعايير **Norms** قواعد للسلوك، تحدد ما يجب وما لا يجب أن نفعله. وهى تختلف عن القيم، فما يجب ألا نفعله قد يتعلق بما نسميه اللياقة، لكنه ليس عيبا إذا فعلناه. على سبيل المثال، يتقبل مجتمعنا بصفة عامة أن يعبر الشباب عما بينهم من علاقات صداقة أو حب، ولكنه ما زال لا يتقبل أن يحتضن المحبون أو يقبل بعضهم بعضا فى الشوارع. ونتقبل التصفيق بعد خطاب سياسى، لكننا لا نتقبله بعد سماع درس دينى، أو بعد شرح جيد من مدرس

الفصل.

هنا يفرق بعض السوسيولوجيين بين نوعين من المعايير، بشأن ما يجب ألا نفعله. النوع الأول معايير أخلاقية صارمة لا يجوز التهاون فيها وتنطبق فى جميع الأحوال وعلى جميع الناس، وتسمى mores، ويمكن أن نسميها المعايير الرسمية. والنوع الآخر يتعلق بسلوكيات روتينية أو عابرة يمكن التساهل بشأنها وإن ظلت غير مقبولة، وتسمى folkways وقد نسميها المعايير الشعبية. ومثال النوع الأول رفض أية ممارسة جنسية علنية، ومثال النوع الثانى عدم ارتداء ملابس رسمية عند حضور حفل أو وليمة (أنظر جراهام سمنر Sumner (1959).

5-2-5 الثقافة المادية

بالإضافة إلى العناصر الثقافية غير المادية كالقيم والمعتقدات والتقاليد توجد عناصر ثقافية مادية. مثل نوع الملابس والأزياء وطرق تناول الطعام، وطرق تصميم المنازل. هناك مثلا من يلبسون ثيابا واسعة مزركشة فى بعض بلدان أفريقيا وآسيا، ومن يضعون على رءوسهم قبعة فى أوربا وأمريكا، كما يوجد من يضعون على رأسهم عمامة كشيوخ الإسلام. وهناك من يتناولون طعامهم بعصى خاصة فى شرق آسيا، ومن يستخدمون الملاعق والشوك. وقد يتخذ تصميم المسكن نظاما خاصا لأماكن استقبال الضيوف، يفصلها عن سائر غرف البيت، بحيث لا تقع عين الزائر على من فيه من النساء، وهو طراز نقل إلى مصر من السعودية.

5-3 التغير والتنوع الثقافى

لما كان الإنسان هو الذى يصنع ثقافته، فهى إذن يمكن أن تتغير، وهذا ما حدث تاريخيا خلال تطور المجتمعات. وبالإضافة إلى هذا الاختلاف عبر الزمن، تصنع الظروف الجغرافية أيضا ثقافة مختلفة. من هنا نشأ التنوع الثقافى، لا عبر المجتمعات المختلفة فقط، بل داخل المجتمع الواحد والدولة الواحدة أيضا. والحكم على ثقافة مجتمع بأنها أدنى مستوى من غيرها هو قياس على ثقافة مجتمع آخر، وهو حكم متحيز على أى حال، لأن كل مجتمع يتمسك بثقافته ويرى أنها هى الأرقى.

5-3-1 التغير الثقافى

يحدث التغير الثقافى داخل المجتمع عبر طرق عديدة، أهمها تطور المجتمع نفسه عن طريق الاختراع والاكتشاف. والاختراع هو صنع شئ جديد لم يكن معروفا من قبل، وهو يصنع ثقافة مادية، يترتب عليها فى النهاية تغير فكرى. وقد غيرت الاختراعات الحياة البشرية تغييرا دراميا، وكان ذلك ملحوظا فى سياق التطور الاجتماعى، من مجتمعات القنص إلى مجتمعات الصناعة. وهناك آلاف الاختراعات يوميا على مستوى العالم. وغنى عن البيان أن معظمها تننتجه المجتمعات التى تقدم فيها العلم وتطورت فيها التكنولوجيا.

أما الاكتشاف، فهو معرفة شئ بدرجة أكبر، بعد أن كان ذلك الشئ موجودا وملحوظا لكنه غير مفهوم، ويحدث ذلك إما من خلال البحث العلمى أو بالصدفة. وقد أدخلت الاكتشافات بدورها تغيرات درامية أخرى فى الحياة البشرية. مثال ذلك اكتشاف النار، واكتشاف المعادن، واكتشاف النباتات

واكتشاف خصائص الحيوانات وإمكان استئناسها. ومن الأمثلة الهامة الأخرى اكتشاف دورات الأجرام السماوية، وما ترتب عليها من حساب الزمن. ومن الاكتشافات الحديثة الاكتشافات الجغرافية التى غيرت خريطة العالم.

يوفر الاختراع أدوات تيسر الاكتشاف، وتتفرع عن الاختراع ابتكارات تضيف أشياء كثيرة نافعة، بإدخال تحسينات مختلفة إلى ما سبق اختراعه. ومن هذا الطريق تراكمت التغيرات التكنولوجية وأدت فى النهاية إلى الثورة الصناعية وتطور مجتمع الصناعة. وقد نتجت عن ذلك أعمق تغيرات ثقافية فى التاريخ، شملت حتى العقائد الدينية. وفى البلاد الإسلامية مثلا تغير حتى الآن فهم بعض النصوص التى كانت تفهم خطأ قبل الاكتشافات الفلكية الحديثة. مثال ذلك النصوص التى تتحدث عن سبع سماوات وسبع أرضين، وقد كانت تفهم على نحو معين (الكتاب المبين)، والآن لا بد أن نفهمها على نحو آخر.

فى أوربا المسيحية وكانت الكنيسة تقرر أن الأرض ثابتة والشمس تدور حولها، إلى أن غير العلم ذلك. وحدثت تغيرات أعمق وأبعد مدى حين انفصلت الكنيسة عن الدولة، وظهر المذهب البروتستانتى حتى قبل أن تنضج الثورة الصناعية. وهكذا يجئ التغير الثقافى دائما متأخرا عى التغير المادى الذى ينشأ عن الاختراع والاكتشاف، وهذا أمر منطقى، فالثقافة القديمة قد تشكك حتى فى الحقائق العلمية، إلى أن تنتشر المعارف العلمية وتغير حياة المجتمع بالفعل. وهذا التأخر فى تطور الثقافة الفكرية عن الثقافة المادية هو ما يسميه أوجبرن Ogburn (1964) الفجوة الثقافية cultural lag.

تظهر مثل تلك الفجوة بعد كل تغير فى العناصر الثقافية الهامة، إذ لا ينتشر ذلك التغير فى كل مكان وكل شريحة من المجتمع بنفس العمق، ولا

ينتشر عموما بنفس السرعة. والتساؤل عن سرعة حدوث التغير الثقافى يستدعى التمييز بين حالتين، حالة حدوث تغيرات صغيرة أو جزئية تضيف إلى الثقافة السائدة ولا تغيرها تغيرا جذريا. ومثل هذه التغيرات الصغيرة قد تنبع من داخل المجتمع، وتنتشر بالاتصال والتفاعل بين أفراده، ويستغرق انتشارها زمن يتوقف مداه على حجم المجتمع. ويكون التغير سريعا إذا كان المجتمع صغيرا، وإذا كان للثقافة الجديدة جذور فيه، بمعنى أن تكون إضافة إلى ما هو قائم، وليست شيئا جديدا عليه.

هذا يحدث فى جميع الثقافات وجميع الأزمنة، دون أن يلقى مقاومة كبيرة. ولكن فى حالات خاصة، حين يكون المجتمع فى أزمة تتطلب تحولا كبيرا وعميقا، تحدث مقاومة من شرائح المجتمع التى لا يفيدها التغيير وقد يضرها. وبهذه المقاومة تتعمق الأزمة، وإذا استمرت المقاومة يحدث التغيير عنوة فيما يشبه الانفجار. وهذا ما يحدث فى حالة الثورة، وتترتب عليه تغيرات كبيرة مفاجئة. وتظل سرعة التغير حينئذ مسألة نسبية أيضا، فسيحدث التغير المادى أسرع من التغير الفكرى، وسيحدث التغير الفكرى أيضا أسرع من المعتاد، لأنه غالبا يظهر ويبدأ انتشاره فعلا قبل الانفجار، بل يكون انتشاره مما يمهد للانفجار.

يمكن هنا أيضا تمييز ما قد نسميه الثقافة الرسمية، وهى الثقافة التى كانت تقاوم التغيير. وتدافع عن تلك الثقافة عادة شريحة من المجتمع مستفيدة من الأوضاع القديمة، ولها نفوذ حاسم فى المؤسسات السياسية الرسمية. وعندما تسقط تلك المقاومة تصبح الثقافة الجديدة هى الثقافة الرسمية. والمفاجئ فى هذه الحالة ليس الانتشار الواسع للثقافة الجديدة، فقد كانت تنتشر قبل ذلك بصورة غير رسمية. وإنما المفاجئ سقوط الثقافة القديمة، وانكشاف

أنها كانت لا تحظى بتأييد فعلى كبير داخل المجتمع.

يختلف الحال حين يتعلق الأمر بانتشار ثقافة واردة من مجتمع خارجى، فهناك أدوات أخرى يكون لها أدوار هامة، وكانت التجارة والحروب دائما من أهم تلك الأدوات. ولم تكن التجارة فى كثير من الأحيان نشاطا تبادليا سلميا خالصا، فكثيرا ما كانت تحميها قوة السلاح، فى وجه مقاومة محلية كرد فعل لآثارها السلبية على البنية الإنتاجية المحلية. مثال ذلك تجارة أوربا مع بلاد الشرق منذ القرن السادس عشر. ومع ذلك حدث تبادل ثقافى فى الاتجاهين، فقد انتقلت عناصر من الثقافة الأوربية إلى تلك البلاد، وانتقلت إلى أوربا أيضا ثقافات شرقية.

مثال ذلك انتقال مواد غذائية كالتوابل من الهند وجزر الهند الشرقية، وانتشار استخدام الملابس الداخلية المصنوعة من القطن فى أوربا، بعد أن عرفها الأوربيون فى الهند وأنتجتها المصانع البريطانية (دافيد لاندز David Landes، 1998: 154). وأخطر من ذلك انتشار الأديان السماوية مما هو الآن المنطقة العربية إلى أنحاء العالم، وهو ما حدث بالاحتكاك والتفاعل السلمى من خلال التبشير والتجارة، ومن خلال الفتوحات العسكرية والتوسع الامبراطورى. ويتميز العصر الحاضر بتقدم الاختراعات التى تيسر للإنسان وسائل اتصال شديدة الفعالية، كالتليفزيون والأقمار الصناعية والإنترنت، تيسر انتشار الثقافات بين الأمم.

فى سياق التغير الثقافى بصفة عامة، تحدث عمليات تؤدى إلى الإسراع بحدوث التغير. ومن أهم العمليات أن يترتب على تغير عنصر ثقافى تغير عناصر أخرى، نظرا لتكامل الثقافة. مثال ذلك انتشار اللغة العربية حين انتشر الإسلام. وانتشار اللغة الإنجليزية بانتقال الصناعة والعلم وأدوات العمل

من انجلترا مهد الثورة الصناعية الحديثة. ومن الأمثلة الهامة الأخرى، ما ترتب على دخول المرأة إلى سوق العمل، فقد تأخر سن الزواج، وزادت معدلات الطلاق. وترتبت أيضا زيادة عدد الأسر التى تعولها النساء، ونشأة جيل من الأطفال فى أسر مفككة.

5-3-2 التنوع الثقافى

التنوع الثقافى هو وجود ثقافات مختلفة سواء فى مجتمعات مختلفة، أو فى نفس المجتمع. ويزداد التنوع بفعل عوامل كثيرة، منها مدى انفتاح المجتمع وتفاعله مع غيره من المجتمعات، ومدى تأثره بالهجرة. وبتأثير الهجرة وحدها حدث أكبر تنوع ثقافى داخل الولايات المتحدة، حيث قامت أصلا على الهجرة واستقبلت مهاجرين من كل أنحاء العالم. وبتأثير الهجرة العكسية من المستعمرات إلى البلاد الاستعمارية زاد التنوع الثقافى أيضا فى البلاد الأوربية، وزادت فيها أعداد المسلمين وأعداد الملونين.

بخلاف الهجرة توجد عوامل تنوع أخرى، مثل الاتساع والتنوع الجغرافى كما هو الحال فى الهند. وينتج تنوع مماثل نتيجة التوسع الجغرافى مثلما هو الحال فى روسيا. ولا يقل أهمية عن ذلك مقاومة انتشار التغير الثقافى داخل المجتمعات. والمعتاد ألا تتغير كل عناصر الثقافة دفعة واحدة، وألا تتغير بنفس السرعة. وتبقى فى النهاية بعض عناصر الثقافات القديمة فى مواجهة كل ثقافة جديدة، وهكذا تعيش ثقافات متعددة جنبا إلى جنب. ويصنع هذا التنوع ما يسمى الثقافات الفرعية subcultures، وهى الثقافات التى تميز جماعات مختلفة داخل الدولة الواحدة، بحيث يوصف المجتمع فيها بأنه متعدد الثقافات.

لا يتميز التنوع بالتعدد فقط بل بالطبقية أيضا، فيما يسمى الثقافة الرفيعة والثقافة الشعبية. يشمل النوع الأول ما يميز نخبة المجتمع من الفنون والآداب، بينما يشمل النوع الثانى ما يميز عامة الناس. ولما كان هذا المفهوم الثقافى يختلف عن مفهوم السوسيولوجيين للثقافة، فقد صاغ بيير بورديه Pierre Bourdieu مصطلح رأس المال الثقافى، ليميز بين تراكم كثيف أو مخلخل لما يسمى الثقافة الرفيعة. وفى هذا السياق لا يوزع رأس المال الثقافى بالتساوى بين شرائح المجتمع، بل تتميز بعض الشرائح عن غيرها. ويرجع هذا إلى ارتفاع تكلفة ذلك التراكم، وهذا ما يجعله متاحا لقلة تتلقى تعليما أعلى وتمارس أعمالا تحقق دخلا أعلى.(أنظر: جنكنز Jenkins، 1992).

فى إطار التنوع يمكن أيضا تمييز ما يسمى الثقافات المضادة countercultures وهى ثقافات تتعارض مع ما هو سائد فى المجتمع أو تختلف عنه اختلافا كبيرا بحيث لا يمكنها التعايش معه. وفى هذه الحالة قد تنفصل الجماعات التى تتبنى تلك الثقافات وتصنع لنفسها تجمعاتها الخاصة. ومثال ذلك ثقافة الهيبيز Hippie التى ازدهرت فى الولايات المتحدة فى ستينيات القرن الماضى، وانتشرت لاحقا فى أوربا واستراليا وكندا وغيرها. وقد تميزت بالاعتراض على الحرب وكانت الولايات المتحدة فى حينها تزداد تورطا فى حرب فيتنام.

وقد وصف كثير من الباحثين تلك الثقافة بأنها كانت معارضة سياسية فى صورة حركة اجتماعية، لكنها كانت تعارض الحرب علانية. أما الممارسات الشخصية فقد تميزت بإطالة الشعر وتعاطى المخدرات والانغماس فيما سمى الثورة الجنسية. ومع أن تلك الثقافة بدأت كثقافة متعارضة مع ثقافة المجتمع الرئيسية، إلا أن الثقافة الرئيسية استوعبتها، وكان هذا نموذجا لنجاح

ثقافة فرعية فى تغيير الثقافة الرئيسية فيما شبهه البعض بحرب غير أهلية (ليتل مارك Mark، 2006). ويتوسع البعض فيرى أنها تركت بصماتها فيما يوصف الآن بثقافة الإنترنت (فريد تيرنر Turner، 2006)

فيما يتعلق بمصر يوجد تنوع ثقافى أبرز ملامحه التنوع الدينى، ما بين مسلمين ومسيحيين. ويوجد أيضا قدر من التنوع اللغوى ما بين أغلبية تتحدث عامية عربية وأقلية تتحدث لغات أخرى كاللغة النوبية. وبين المتحدثين باللغة الغربية تتعدد اللهجات، وتختلف فى الوجه القبلى عنها فى الوجه البحرى. وتختلف فى القاهرة عن غيرها. ويوجد كذلك قدر من التمايز فى اللهجات بين المدن الكبرى كالقاهرة والإسكندرية، وبين محافظة كالشرقية وسائر محافظات الوجه البحرى. ويلاحظ أيضا بعض التمايز فى قيم العمل بين محافظات دمياط والمنوفية وأسيوط وبين غيرها من المحافظات.

تتميز بعض مناطق مصر أيضا بأوضاعها القبلية أو خصائصها السكانية الخاصة وما يميزها من فنون وعادات وتقاليد وسلوكيات. مثال ذلك الجماعات القبلية فى سيناء، والبحر الأحمر فى منطقة حلايب وشلاتين، ومجتمعات سكان واحات الصحراء الغربية فى سيوة والخارجة والداخلة. ويضاف إلى ذلك جماعات من أصل غير مصرى تعيش فى مصر، ومنها جماعات أوربية، وجماعات عربية. وقد زادت أعداد ذلك النوع الأخير من الجماعات بعد الأحداث العاصفة التى مرت بالسودان والعراق وسوريا.

فى ظروف خاصة، وجدت أيضا ثقافات مضادة مارستها جماعات لا تعلن عن نفسها، لكن ممارساتها أعلنت عنها. مثال ذلك الجماعات السياسية المتطرفة، منها جماعات يمينية دينية وجماعات يسارية. وكان القمع السياسى سببا لاتجاهها إلى العمل السرى، وكان أيضا سببا فى استمرار تطرفها.

وبخلاف ذلك ظهرت جماعات سياسية أخرى أشعلت حركات احتجاج واسعة وساهمت فى الثورة الأخيرة، واستوعبت معظمها الأحزاب السياسية الجديدة التى نشأت بعد الثورة.

5-3-3 نسبية الثقافة

تشير نسبية الثقافة إلى صعوبة الحكم على ثقافة مجتمع ما، بأنها أرقى أو أدنى من وجهة نظر مجتمع آخر. ومعنى ذلك أن تكون لجميع الثقافات حقوق متساوية، وأن يكون لكل جماعة نفس الحق فى ممارسة ثقافتها. ومع التسليم بذلك المبدا الديمقراطى، يحق لنا ألا نتنازل عن مقاييسنا رغم نسبيتها ووصفها بالتحيز. نتقبل المجتمعات الأخرى كما هى، إذ لا يحق لنا أن نلزمها بثقافتنا، أما داخل مجتمعنا فلا يجوز أن نقف موقف الحياد تجاه أى ممارسات ضارة أو غير إنسانية بدعوى حرية الثقافة، أو بدعوى الحقوق المتساوية للجميع.

هذا هو المغزى التاريخى للثقافة، فهى مخزون الحكمة التى اكتسبها المجتمع من تجاربه التاريخية، والتى ينقلها جيل لجيل. والهدف هو المحافظة على ما اكتسبه المجتمع من معرفة وما حققه من تقدم عبر تاريخه. ونسبية الثقافة هنا تسمح لأى مجتمع بأن يقارن مراحل تطوره المختلفة، وله أن يحكم بأنه فى وضع أرقى مما كان عليه فى الماضى، ومقياس صحة هذا الحكم اتفاق غالبية المجتمع عليه. وبهذه القاعدة الديمقراطية يصدر المجتمع قوانينه ويجرم أفعالا معينة ويفرض عقوبات على الجرائم.

هكذا هى نسبية الثقافة، تظهر فى سياق المقارنة بين ثقافات مجتمعات

مختلفة، وتظهر بنفس القوة ولكن بمغزى مختلف عند مقارنة ثقافات مختلفة داخل نفس المجتمع. لهذا نستطيع أن نقرر ما هو الأفضل لمجتمعنا وأن ندافع عنه، ولكن لا نفرضه بطريقة تعسفية. فنسمح للأفراد بتبنى وممارسة قيم ومعتقدات ومعايير تختلف عما تراه الأغلبية، بشرط ألا تكون ممارستها تعسفية بدورها، فلا تؤدى إلى التعدى على القيم والمعتقدات التى تتبناها الأغلبية. وهذا ليس حقا للفرد فقط، بل هو حق المجتمع كله، لأن ما تتبناه قلة من الأفراد من قيم جديدة قد يتبين لاحقا أنه الأفضل.

من خلال هذا التعارض يحدث التطور، إذ يبدأ الجديد والأرقى فى حدود ضيقة ثم ينمو. وإذا كان من الصعب أن تقرر الأغلبية فى البداية مدى صلاحية هذا الجديد، فستقرر ذلك أغلبية جديدة بعد زمن يكفى للتأكد من فائدته للمجتمع. وبدون هذا يفقد التطور معناه، ويتساوى ما يدفع المجتمع إلى الأمام وما يشده إلى الخلف. وتظل الثقافات القديمة قائمة حتى بعد أن يتخطاها الزمن، ويتجاوزها التقدم الاجتماعى والاقتصادى. وفى النهاية، فإن ما نقرره لمجتمعنا لا نفرضه على مجتمع آخر.

4-5 أنواع من الثقافات

نتيجة للتنوع الثقافى توجد فى العالم آلاف الثقافات، ومنها ثقافات ذات سمات مشتركة ويمكن اعتبارها ثقافة رئيسية، توجد تحتها ثقافات فرعية. ومن الثقافات الرئيسية توجد على سبيل المثال، ثقافة أوربية، وثقافة إسلامية وثقافة شرق آسيوية. وقد انتشرت الثقافة الأوربية فى أمريكا، لكنها اكتسبت هناك سمات خاصة فصار للثقافة الأمريكية ما يميزها كثقافة فرعية. والثقافة الإسلامية تتفرع عنها ثقافات منها ما يميز الشيعة وما يميز المناطق البدوية،

وما يميز بلادا لا تتحدث العربية. وفى شرق آسيا تتميز ثقافات فرعية صينية ويابانية، وهكذا.

5-4-1 الثقافة الأوربية

نقصد بالثقافة الأوربية ثقافتها الحديثة. وتحتفظ تلك الثقافة الحديثة ببقايا ثقافات أوربية قديمة، أبرز ما يشير إليها اختلاف اللغات الأوربية، والتى تعبر عن ثقافات فرعية مميزة. لكن هناك عناصر كثيرة مشتركة أبرزها ما أنتجه التقدم الصناعى والعلمى من منتجات تميز الحياة فى تلك القارة. وقد أنتج ذلك التقدم عناصر مشتركة أخرى من أبرزها الفصل بين الدين والسياسة، وإعطاء اهتمام خاص لحرية الفرد. وأدى ذلك إلى تطور أوضاع المرأة، وظهور قيم أخلاقية جديدة غيرت شكل العلاقات بين الجنسين هناك.

فى إطار المساواة صار من حق المرأة أن تلبس ما تشاء، وأن تقيم علاقات ندية مع الرجال. وصار الجنس مرتبطا بالحب لا بالزواج، وانعكس ذلك فى تطور لغوى صارت فيه كلمة الحب تكفى للتعبير عن العلاقات الحميمة. وبعد أن كانت الفروق بين الرجل والمرأة تسمى فروقا جنسية تم اشتقاق مصطلح جديد هو النوع gender. وهذا تعبير عن مساواة إنسانية كاملة وتفرقة فقط بين نوعين كلاهما إنسانى. وبقيت قيمة الأسرة لكن تغيرت مفاهيم السلطة الأبوية، فتساوت وسلطة الأب والأم، وصار للطفل حقوق لا يجوز التغاضى عنها.

تغيرت كذلك قيمة العمل، وكانت أخلاقيات العمل، وما سماه ماكس ويبر الأخلاق البروتستانتية Protestant ethics من العناصر الأولية التى

تطورت على أساسها تلك الثقافة، وتطور على أساسها النظام الرأسمالى. وقد انتشرت الثقافة الأوربية بقوة على مستوى العالم، ودليل ذلك انتشار اللغة الإنجليزية، والتى لم يتسع استخدامها بزيادة حجم مجتمعاتها الأصلية، بل بسبب اتساع التعامل بها بعد تفكك نظم ما قبل الرأسالية فى المجتمعات التى تم غزاها الاستعمار الأوربى. وبذلك صارت ثانى لغة فى العالم بعد اللغة الصينية، التى يحدد انتشارها فقط عدد سكان الصين.

فى إطار الثقافة الأوربية تميزت ثقافة أمريكية، هى ثقافة عملية نشأت عن التوسع الاقتصادى السريع واستيعاب الثقافات الواردة من خارج الولايات المتحدة مع المهاجرين. ويبدو الاختلاف عن الثقافة الأنجلوسكسونية فى اللهجة الأمريكية المميزة، والمفردات التى أدخلتها الحياة الأمريكية إلى اللغة الإنجليزية الأصلية. وبتحرر العبيد واستيعابهم فى المجتمع الأمريكى تغيرت كلمة الزنوج لتحل محلها كلمة السود أو الملونون. وباندماج السود فى المجتمع الأوربى والأمريكى تعمق التطور اللغوى وصارت للسود لهجتهم التى تسمى فى بريطانيا إنجليزية السود Black English.

يظل كل هذا فى إطار استيعاب العناصر الرئيسية من الثقافات القديمة. وهكذا، برغم ما حدث من تطور أدى لفصل الدين عن سلطة الدولة، بقى الطابع المسيحى بارزا. لا تعبر عن ذلك مظاهر خاصة التدين، بل يعبر عنه ارتباط عام بالعقيدة، يظهر فى الاحتفالات السنوية بميلاد المسيح، وارتباط العطلات الأسبوعية بطقوس صلوات يوم الأحد، بغض النظر عن مدى المواظبة على الذهاب فعلا للصلاة. وتعبر عن هذا أيضا طقوس أخرى كثيرة مثل الزواج والتعميد واتساع استخدام رمز الصليب فى كثير من تفاصيل الحياة اليومية.

5-4-2 الثقافة الإسلامية

لا تختزل الثقافة الإسلامية فى تعاليم الدين الإسلامى وأركانه، بل تتسع لتشمل العادات والتقاليد والقيم التى تكونت وسادت المجتمعات الإسلامية بتأثير تعاليم الإسلام. ومن أبرز سمات تلك الثقافة تحريم الخمر، وتحريم الجنس خارج نطاق الزواج، وبناء على هذا كانت قيم المجتمع تحتم الفصل بين الذكور والإناث، وترفض اختلاطهما فى المدارس والجامعات. وكانت ترفض أيضا أن تكشف المرأة عن وجهها أمام غير أقاربها من الذكور، وترفض خروج المرأة من بيتها سافرة أو مع رجال من غير الأقارب.

كان يترتب أيضا رفض سكنى امرأة بمفردها فى غير مسكن أسرتها أو دون أن يقيم معها أحد ممن يحرم عليهم الزواج منها. وللمرأة أن تصلى فى المسجد كالرجال، ولكن فى أماكن تخصص لها. ولها أن تشارك فى الصلاة الجماعية ولكن تخصص لها صفوف منفصلة خلف الرجال. كل ذلك احتياطا لتقليل فرص نشأة علاقات بين المرأة وبين رجال غرباء. وقد انعكس ذلك فى كلمات اللغة، فصكت كلمة "المحارم"، وهم أقارب المرأة الذكور المحرم عليهم الزواج منها، وصكت كلمة "النكاح" التى تعبر عن ممارسة الجنس، مرادفا لكلمة الزواج.

بجانب كل هذا التحريم، وخلافا للثقافة الأوربية ذات الطابع المسيحى، تسمح الثقافة الإسلامية بتعدد الزوجات، وتسمح بالطلاق لأسباب كثيرة، منها مجرد الرغبة فى إنهاء الزواج. وللمطلق حق الزواج ثانية دون أى قيود على عدد مرات الزواج. وللمطلقة نفس الحق إذا كان الزواج بغير زوجها الأول

ولها أن تستعيد الزواج بزوجها الأول مرتين، ولا يتكرر أكثر من ذلك إلا إذا توزجت رجلا آخر كفاصل بعد أن تكون قد طلقت ثلاث مرات. وفى سياق التطور الإجتماعى أدخلت تغيرات واسعة فى تلك الثقافة، فتغيرت كثير من المعايير. وتغير وضع المرأة وتساوت قانونيا مع الرجل، وصارت تخرج للعمل، وتتعلم فى المدارس والجامعات وتختلط هنا وهناك بالرجال الغرباء سافرة الوجه.

أدى تطور المجتمع أيضا إلى انكماش ظاهرة تعدد الزوجات فى الحياة العملية، وصارت الأسرة ذات الزوجة الواحدة هى النموذج. ومع التطور الاقتصادى واتساع قطاعات الصناعة والتجارة واتساع المدن، زادت الهجرة من الريف إلى المدن، وضعفت الروابط الأسرية، وصار باستطاعة المرأة فى المدن أن تقيم علاقات صداقة مع الرجال، وأن تسكن بمفردها دون أن تكون ملزمة بأن يقيم معها ذكور من محارمها. وبجانب هذا زادت معدلات الطلاق وظهرت الأسر التى تعولها النساء مثلما حدث فى مجتمعات الصناعة.

يقول الإسلاميون المتشددون أن هذا كان تقليدا للثقافة الأوربية، وخروجا على الطابع الأصيل للثقافة الإسلامية. ومن الحقائق المسلم بها أن الاحتكاك بالثقافة الأوربية نقل إلى المسلمين قيم الثقافة الأوربية ومعاييرها. وقد نقل الثقافة المادية من سلع وخدمات وأدوات إنتاجية قبل أن ينقل القيم والمعايير الفكرية. وبذلك حدث تطور اقتصادى كان العامل الحاسم فى تقبل الثقافة الواردة وانتشارها، لا باعتبارها واردة بل باعتبارها ملائمة للمجتمع فى تطوره الجديد. وهكذا عاشت الثقافة الجديدة وصارت جزءا لا يتجزأ من الثقافات المحلية.

لم يكن ذلك فى النهاية ابتعادا عن الثقافة الإسلامية أو رفضا لها، بل

كان تطورا، حدث فى إطار الالتزام بتعاليم الإسلام، مع إعادة تفسيرها. وقد حدث لذلك إصلاح دينى رفض التشدد، ونشر أحكام التسامح التى تزخر بها المذاهب الإسلامية. وساعدت على ذلك روح التحرر والثورة ضد الاحتلال الأجنبى. وكان استقرار الثقافة الجديدة بعد التحرر من السيطرة الأجنبية دليلا كافيا على تعبير تلك الثقافة عن احتياجات المجتمع. وهكذا كانت الثقافة الإسلامية عرضة للتغير مثلها مثل أى ثقافة أخرى نتيجة لتطور المجتمعات الإسلامية.

مهما يكن، فقد بقى الطابع الإسلامى شديد الوضوح، وبقيت العناصر الأساسية للثقافة الإسلامية، وقاومت وصمدت فى كل المجتمعات الإسلامية. ظلت المساجد بناء ذا طابع خاص، وتكاثرت أعدادها مع زيادة عدد السكان. وظلت أهم الأعياد القومية هى الأعياد الدينية، وظل يوم الجمعة يوم عطلة أسبوعية، وإن شارك فى ذلك يوم الأحد بسبب وجود المواطنين المسيحيين. وتباين فى هذا الإطار مدى تأثر كل بلد بالثقافة الأوربية بفعل عوامل كثيرة.

فى الهند مثلا صارت اللغة الإنجليزية لغة ثانية، وساعد على ذلك تعدد اللغات الهندية بحيث صارت اللغة الإنجليزية من عوامل توحيد المجتمع الهندى الأكبر. وتأثر بذلك المسلمون مثلما تأثر غير المسلمين، وظهر ذلك بوضوح فى الباكستان بعد انفصالها وغالبيتها مسلمون، فبقيت اللغة الإنجليزية لغة ثانية هناك. ولم يحدث مثل ذلك فى البلاد العربية، حيث انتشر تعلم اللغات الإنجليزية فى بعضها والفرنسية فى بعضها الآخر، لكن اللغة العربية صمدت، وبقيت هى اللغة القومية، ولم تشاركها أى من اللغتين الإنجليزية أو الفرنسية كلغة ثانية.

يستثنى من ذلك المغرب العربى وخاصة الجزائر. ولم يكن ذلك بسبب

التعدد الإثنى بل لأسباب تتعلق بسياسات الاحتلال الفرنسى الذى جعل التعليم الرسمى كله باللغة الفرنسية. ومع ذلك صمدت اللغة العربية وعاشت، وكان ذلك جزءا من صمود الثقافة الإسلامية، التى كانت رافدا أساسيا التحرر الوطنى هناك، مثلما كانت فى سائر البلدان العربية. ويرجع اختلاف اللهجات العربية فى بلاد تلك المنطقة إلى امتزاجها بلغات قوميات أخرى توجد هناك.

5-4-3 ثقافات الشباب

ميز الباحثون الاجتماعيون فى أوربا ما أسموه ثقافات الشباب. وقد لاحظوا ذلك بعد الحرب العالمية الثانية، ولاحظوا ازدهارها الكبير بعد ذلك فى ستينيات القرن الماضى. ومن الثقافات التى أثارت كثيرا من الاهتمام فى حينها ثقافة الهيبيز Hippies، وقد سبق الإشارة إليها. ومنها أيضا جماعات البنك Punks، وهم يحلقون شعر رأسهم بطريقة خاصة تترك نطاقا مستطيلا من الشعر يمتد فوق رئوسهم من الأمام إلى الخلف ويصبغونه بلون أحمر. وجماعات حليقى الرئوس skinheads، وغيرهم جماعات أخرى كثيرة.

كانت كل هذه الجماعات ترفض السلوكيات المعتادة التى تفرضها قيم المجتمع السائدة، وتضع لنفسها معايير خاصة. وكانت اهتماماتها تدور حول عناصر مادية من الملابس والموسيقى والأفلام، وصاروا يمثلون شريحة مميزة من أسواق استهلاك تلك السلع، وانتعشت صناعات تنتج لهم بصفة خاصة ما يفضلونه. وقد كانوا غالبا جماعات من الطلبة لم يرتبطوا بسوق العمل بعد. وكانت الدراسات الاجتماعية الأولى بشأنهم تكتفى بوصف ممارساتهم ومعاييرهم. وبعد ذلك حاول الباحثون تفسير تلك الظاهرة.

رأى كوهين Cohen (2003) أن هذه الحركات محاولة لحل تناقضات خفية بين ما يفهمونه من الثقافة الاجتماعية العامة، التى تدفعهم نحو العمل وسوق الاستهلاك كرجال ونساء كبار، وبين فهم الوالدين لمعانى المراهقة. بهذا المعنى يمكن القول بأن الشباب كانوا يحلون مشكلاتهم بطريقتهم. وفى الوقت الحاضر ينظر الباحثون إلى تلك الظاهرة من وجهة نظر ما بعد الحداثة فيرون التنوع الكبير فيها ويركزون على الاختلافات فيتضح وجود حماعات وثقافات شتى (مثلا، أنوب نایاك Nayak ، 2003).

من زاوية ما بعد الحداثة أيضا يرى هودكنسون Hodkinson (2002)، أربع سمات تميز تلك الثقافات هى: الهوية، والالتزام، والاتساق، والاستقلالية. لكل جماعة هويتها، تعبر عنها بأن تميز نفسها باسم وربما بشعار خاص أيضا. وتفرض كل جماعة على أعضائها ألا يخرجوا عن القواعد التى تقررها، وتطرد من عضويتها غير الملتزمين. وأما الاتساق فهو التميز فى كل الجوانب، فقد تتميز بملابس معينة ونظام لحلق الشعر وموسيقى وأسلوب فى التعامل فيما بين الأعضاء، على أن يتمشى كل هذا مع الإسم الذى تتخذه. أما الاستقلالية فهى بعد ذلك نتيجة ضرورية فالجماعة ليست تابعة لجماعة أخرى.

الملاحظ بعد ذلك أن ثقافات الشباب ليست مجرد ظهور جماعات خاصة غريبة، بل صار للشباب عموما أسلوب حياة يتولون هم صياغته ويحددون تفاصيله. وقد صارت ثقافات الشباب موضوعا هاما للدراسات الاجتماعية، ولكن لم يظهر ذلك بعد بوضوح فى مجتمعنا. ولا يرجع هذا إلى عدم وجود الظاهرة، فهى موجودة ومؤثرة، والشباب المصرى لم يكن استثناء. لكن الدراسات قليلة بشأنه مثلما هى قليلة فى معظم الموضوعات التى تمس التغير

فى حياة المجتمع. وقد كان الشباب هم الذين قادوا كل الثورات والانتفاضات، فكانوا هم قادة ثورة 1919 وقادة الانتفاضات الشهيرة مثل انتفاضة 21 فبراير عام 1946، ضد الاحتلال البريطانى، وصار تاريخ تلك الانتفاضة هو يوم الطلبة العالمى.

فى عام 1968 كان الطلبة أيضا هم الذين فجروا أول احتجاجات فى ظل حكم جمال عبد الناصر. وتكرر ذلك فجر أعوام 1972 و 1973. وكانوا هم الذين فجروا الثورة الأخيرة فى 25 يناير 2011. وقد كانوا أيضا قلب الجماعات الدينية المتشددة التى أعادت صياغة الثقافة الإسلامية وطبعتها بطابع خاص ظل ينمو فى الحياة المصرية وانتهى بقيام حكم إسلامى عام 2012. كل هذه حركات كانت تقودها نخب من الشباب، أما جموع الشباب بعيدا عن السياسة فكان لها أيضا سماتها وثقافتها الخاصة.

فى سبعينيات القرن الماضى، لم تبرز فى الحياة المصرية فقط حركات التمرد السياسى التى أشعلها الشباب، بل برزت أيضا حركة من نوع آخر، اتجه الشباب فيها إلى إطالة سوالفهم، وأطال البعض منهم شعر رأسه. وكان الشاب منهم يقول ببساطة، هذا ما أحبه، أليس لى الحق حتى فى إطالة شعرى؟ وبعد ذلك لاحظنا توسع ذلك التمرد ليشمل عناصر أخرى، بدأت ترفض التعاليم الأسرية، وتطور سلوكيات خاصة. وفى إطار تفضيلات موسيقة جديدة تطور لون موسيقى خاص، ومطربون ينشرونه بشرائط الكاسيت.

انتشرت أيضا ملابس الجينز، وكانت فى البداية للذكور ثم انتشرت أيضا بين الإناث. وظل هذا الاتجاه ينمو تدريجيا إلى أن صار للشباب حياة كاملة مختلفة، وانتشرت أيضا ظواهر سلبية كالإدمان. وكانت جماعات الأصدقاء

غير الرسمية تتضامن ويشجع أفرادها بعضهم بعضا ويتبادلون الدعم والحماية. وكان المجتمع الأبوى بتقاليده ومفاهيمه القديمة يستسلم شيئا فشيئا ويتقبل الشباب كما هم بصورة متزايدة. ولفترة طويلة بدا أن الدولة تشجع انشغال الناس بأى اهتمامات بعيدة عن السياسة، فكانت تقمع أى تجمعات أو حركات ذات طابع سياسى، وتتغاضى عن التجمع لتشجيع فرق كروية أو للاستمتاع بحفلات غنائية.

كان هذا أحيانا يتزامن مع ظهور حركات الشباب وتمرداته فى أوربا وغيرها، ولكنه لا يمكن تفسيره بأنه تقليد، بل كانت هنا اتجاهات تنمو وتبحث عن وسيلة للتعبير. وفى حدود طريقة الحياة المصرية التى كانت مقيدة بنظام سياسى يرفض التسامح، كان ذلك يتم بصورة غير رسمية، للإفلات من الضغوط الرسمية، والإفلات من قبضة النظام السياسى. وفى هذا السياق، كانت الموسيقى وتشجيع المباريات الكروية وإطالة الشعر وسائل للتعبير وسلوكيات تبدو شخصية ولا تخالف النظام العام، وليست جرائم يعاقب عليها القانون.

كان التحايل على القانون عملية أخرى عبر عنها الإدمان، وأشكال أخرى من الخروج عن التقاليد والمعايير الاجتماعية السائدة، كالزواج العرفى. وقد تردد فى أوساط المثقفين فى مصر تفسير لسلوكيات الشباب هذه بأنها صراع بين الأجيال، وكان هذا صيغة مصرية من تفسير هودكنسون السابق الإشارة إليه. لكن هذا لا يكفى لتفسير الحالة المصرية، مع أنه قد يكون صحيحا من بعض الزوايا. ولا يمكن الفصل بين التحايل على القانون وبين ممارسات الفساد، ولا ينفصل ذلك كله عن مشاعر الغضب التى سادت فى مصر كرد فعل للقهر والاستبداد السياسى. وقد تراكمت تلك المشاعر إلى أن انتهت

بالثورة.

ستوضح دراسة أحداث الثورة الأخيرة حقيقة رفض الشباب لكل ما يتضمنه النظام القديم، ورفض من مالوا للتعايش معه، ومنهم الجزء الأكبر من النخبة السياسية القديمة. وحين يتعلق الأمر بصراع أجيال فيجب أن نرى كل فئات الشباب تشارك فيه، لكن الملاحظ أن حركات الشباب كانت تضم المتعلمين، الذين ينتمون ثقافيا إلى الطبقة الوسطى. وفى هذا السياق وقعت أحداث الثورة. ومما يلفت الانتباه على أى حال، أن معظم الشباب الذين شاركوا فى تلك الثورة لم تكن لهم توجهات سياسية محددة، وكان يشدهم للمشاركة تحدى السلطة وتحدى الخطر، مع شعور بالفخر وزهو بالبطولة. ويلفت الانتباه أيضا أن فئة منهم تشكل رافدا للفوضى بالإصرار على الاشتباك مع الشرطة وممثلى السلطة دون أى مبرر.

5-5 دراسة الثقافة

من أى زاوية يمكننا دراسة الثقافة؟ يتوقف هذا على تقديرنا لدورها الاجتماعى، وما يترتب على فهمها من فهم لأنفسنا وفهم للعالم. كانت الثقافة تدرس على أساس دورها الوظيفى، حين كانت النظرة الوظيفية الكلاسيكية هى السائدة. وقد عرفنا كيف كانت تلك النظرة ترى المجتمع مكونا من أجزاء لكل جزء وظيفته. وكانت تبنى على ذلك رؤية الثقافة كمنظومة مكافئة، يتكفل كل جزء منها بضبط إحدى الوظائف الاجتماعية. ومن هذه الزاوية كانت الثقافة هى الداعم لوحدة المجتمع واستقراره.

من هذه الزاوية أيضا كان يمكن تفسير ما يوجد فى المجتمع من اختلافات

أو سلوكيات غير متسقة مع النمط السلوكى السائد فيه، بأن تلك الاختلافات نتاج ثقافة خاصة. على سبيل المثال يجلس الباعة فى السوق ونسميهم الباعة الجائلين، لأنهم ليس لهم محلات خاصة. وكان الأصل أن يتجولوا فى الشوارع لعرض بضائعهم، وما زال البعض يفعل ذلك. وكان التجوال متسقا مع فهم خاص لأوامر الله، بأن يسعى كل إلى رزقه، ليكون لكل مجتهد نصيب. وهكذا كانوا يتجولون بحثا عن زبائنهم، ولا يجلسون فى انتظار أن يسعى إليهم الزبائن.

هذه النظرة تتسق مع الفلسفة المثالية، التى ترى أن العالم المادى لا يبدأ بالمادة بل بالفكرة. وبتعبير أوضح، يتشكل الوعى أولا ثم يشكل العالم. وقد عرفنا أن هذه كانت نظرة ماكس ويبر وإميل دوركاييم. وبهذه النظرة تعتبر الثقافة استراتيجيات لتحقيق الاحتياجات البشرية. وما يوجد من تشابه بين المجتمعات مصدره وجود عناصر مشتركة بين جميع الثقافات، حيث يعى البشر باحتياجاتهم، وحيث توجد احتياجات متماثلة لدى جميع البشر. وهكذا توجد عناصر متماثلة فى ثقافات العالم، ينشأ عنها ما هو مشترك كالزواج والأسرة والاحتفاء بولادة الأطفال، وتشييع الموتى إلى مثواهم الأخير وتقديم العزاء لذويهم.

كان الاعتراض هنا يأتى من الماركسية التى ترى أن الوجود المادى يبدأ أولا ثم على أساسه يتشكل الوعى، وبهذا الوعى يعيد الناس تشكيل عالمهم. ويبدو ضعف النظرة الوظيفية فى أنها لا تفسر التغير والصراع، ولا تفسر تعارض المصالح. فإذا كان المجتمع كالكائن البيولوجى يؤدى كل عضو فيه وظيفة تساهم فى الحفاظ على حياة هذا الكائن، فإن الوظائف العضوية ينبغى ألا تتعارض. فمن أين ينشا إذن تعارض المصالح داخل المجتمع؟ اوإذا كانت

الثقافة منظومة متكاملة تحقق استقرار المجتمع فلماذا تتغير؟ ولماذا تتعارض الثقافات؟ وكيف تسود ثقافة الجماعات الأقوى فى المجتمع ويتم تهميش ثقافات الجماعات الأضعف؟

مع ذلك، تلتقى المدرستان فى النهاية عند نقطة، إذ يستطيع أفراد أن يرفضوا الثقافة السائدة وينشروا ثقافة معارضة تتحداها. وهم يكتسبون تلك الثقافة من خلال وعيهم الذى تشكله خبرتهم بواقعهم وفهمهم له. هذا هو منطق الماركسية، وبموجبه نشأ النموذج الذى تقترحه لبناء وعى الأفراد. فى ذلك النموذج يبنى وعى الأفراد بتحليل الواقع الذى يعيشون فيه وشرحه لهم. وهنا نقطة اللقاء مع النظرة الوظيفية للثقافة، فبعد أن يفهم الأفراد واقعهم يصبح فى استطاعتهم أن يغيروه. وبنفس القدر ونفس النوذج، يستطيع طرف آخر ليس له مصلحة فى التغيير، أن يصنع ثقافة تدعو الناس إلى تقبل واقعهم وعدم السعى إلى تغييره.

هذه نظرية ناقدة طورتها مدرسة فرانكفورت، ومنها أدورنو Adorno (1991). وكان يرى أن من نوع أنواع الموسيقى الشعبية والأفلام فيما يسمى "الثقافة الجماهيرية"، تضعف وعى الناس، وأن "صناعة الثقافة" تبنى ثقافة نمطية تخدع الناس وتشجع السلبية (أدورنو وهوركهايمر Adorno and Horkheimer، 1972). وقد بلور الزعيم الماركسى الإيطالى أنتونيو جرامشى (1971) نفس الفكرة، وبين كيف تستطيع فئة مسيطرة أن تستخدم الثقافة للهيمنة على فئات أخرى أو على غالبية المجتمع. وبنفس المنطق كانت العبارة الشهيرة، أن الدين أفيون الشعوب، أيا كان قائلها، لا تعنى أكثر من أن الدين يستخدم مثله مثل منظومات فكرية أخرى للسيطرة على الشعوب وإخضاعها باسم التعاليم الإلهية، وبدعوى أن ما يصيب الناس من ظلم وآلام

وبؤس إنما هو إرادة الله.

لقد بنيت مدرسة فرانكفورت على فهم التجربة النازية فى ألمانيا، وبنى جرامشى رأيه على خبرته مع الفاشية الإيطالية. ولدينا شبيه بذلك فى مصر، منذ ستينيات القرن الماضى وحتى ثورة يناير 2011، لكنه لم يتعرض له أحد بالدراسة بأسلوب علمى، بسبب القهر السياسى والتسلط والهيمنة. وقد جرت عملية مقننة لتعديل ثقافة الناس، واستخدت لهذا الغرض كل أساليب الدعاية والتأثير، للتغطية على الأخطاء والسلبيات، وإقناع الناس بأن كل شئ على ما يرام. وشمل ذلك فى تلك الفترة مزيجا من مباريات الكرة وحفلات أم كلثوم، وخطب الزعيم وصوره، والمقالات الصحفية والأحاديث الإذاعية. وفى حينها كان هناك ما يسمى إدارة "الثقافة الجماهيرية"، وأنشئت وزارة الإعلام، وهيئة للاستعلامات، وإدارات لما يسمى التوجيه المعنوى.

خلاصة الموقف، أن الثقافة قد تصبح سجنا يحاصر الناس، ويفرض عليهم ما لا يفيد، أو يوجههم فى اتجاه محدد بطريقة قسرية. ومع ذلك يظل الإبداع البشرى قادرا على كسر الحواجز وصناعة عالم جديد مختلف. والعلم أداة لهذا الغرض، وما زالت فروع العلم فى مصر تحتاج إلى جهد كبير لتطويرها. وما زال علم الاجتماع عندنا فى بداياته، ويمكنه فتح نوافذ جديدة للمعرفة، وتقديم إسهامات كبيرة لفهم المجتمع المصرى.

6

الجماعات

الجماعات من أقدم الموضوعات التى درسها علم الاجتماع لأن البشر لا يعيشون كأفراد منعزلين بل فى جماعات. مثال ذلك الأسرة، والأصدقاء، والشركة، والجيرة، والجماعة الدينية، وغير ذلك. والتغير الكبير الذى حدث فى القرن العشرين، أن الجماعات لم تعد تتكون من أفراد تربطهم روابط القرابة كما كان الحال فى الماضى، بل صارت جماعات عمل لا يرتبط أعضاؤها بالضرورة بأى قرابة. وقد تظل جماعة صغيرة قوية ومترابطة يدور الاتصال بين أعضائها وجها لوجه، ولكن بجانب ذلك صارت توجد أيضا جماعات متباعدة لا يلتقى أعضاؤها، وقد ينتشرون على نطاق العالم. ويظل كل فرد برغم ذلك محملا بمشاعر الانتماء لجماعة ما.

6-1 الجماعة

يختلف تعريف الجماعة حسب الاهتمام بنوع الروابط التى تربط بين

أعضائها. قد يتركز الاهتمام بالمصير المشترك، وقد يتركز على بنية الجماعة وحالة كل عضو ودوره فيها، أو يتركز على رؤية الأفراد لأنفسهم كجماعة واعتراف الآخرين بذلك (روبرت براون، Brown، 1988). ويمكننا القول بأن الجماعة تتكون من فردين أو أكثر، يعترف كل منهم بالآخر, ويتواصلون، وتجمع بينهم خبرة مشتركة وولاءات ومصالح. وبقدر ما يوجد بين أفراد الجماعة من اهتمام شخصى حقيقى متبادل، يمكن التمييز بين أنواع من الجماعات. وعلى أساس حجم الجماعة تختلف أنواع التفاعلات الاجتماعية بين أفراد الجماعة وبين غيرها من الجماعات.

6-1-1 أنواع الجماعات

تصنف الجماعات كجماعات أولية أو ثانوية. والجماعة الأولية جماعة صغيرة يعرف أعضاؤها بعضهم بعضا معرفة جيدة، وترتبط بينهم علاقات شخصية قوية ودائمة، ويهتم كل عضو منهم بسعادة الأعضاء الآخرين. هذه هى جماعات الأسرة والأصدقاء، وفيها تتميز العلاقات بقدر من العاطفية، ويتوافر للفرد شعور بالأمان، ويسود لديه شعور بالولاء للجماعة، ولو حدثت خلافات فى بعض الأحيان. ونحن نتوقع دائما أن يساعدنا أقاربنا وأصدقاؤنا دون أن ندفع ثمنا لذلك، ولكنهم يتوقعون رد الجميل، لكى لا يشعروا أننا نستغلهم.

فى المقابل تتميز الجماعة الثانوية بأنها جماعة كبيرة لا تقوم على العلاقات الشخصية بل تربط بين أعضائها مصلحة أو نشاط معين. ولا تربط بين أعضاء تلك الجماعات عاطفة قوية، ولا يرتبط وجودها بوقت معين، فقد تتكون ثم تنتهى بعد فترات قصيرة دون أن يكون لانتهائها أهمية خاصة. مثال

ذلك حضور حفل مسرحى، أو المشاركون فى رحلة جماعية، فبعد انتهاء الحفل أو الرحلة ينتهى وجود الجماعة. وقد تتكون جماعات أولية من خلال وجود الأفراد معا فى جماعة ثانوية. مثال ذلك أن تتحول علاقة عمل إلى صداقة (شارلز كولى Cooley، 1964).

لا يعنى هذا أن تكون العلاقات بين الأفراد فى الجماعة الثانوية علاقات باردة، فكثيرا ما تكون علاقات سارة، مع أنها لا توجد فيها ولاءات. ذلك لأن العمل من أجل هدف مشترك، يجعل الفرد حريصا على بناء مناخ ودى يستطيع فيه أداء دوره بالتعاون مع الآخرين. وسواء فى الجماعات الأولية أو الثانوية فهذه هى السمات النموذجية، وقد تختلف عن ذلك فى الواقع العملى. ولكن بهذه السمات يكون لدينا متصل يقع كل من هذين النوعين من الجماعات على أحد طرفيه، وتتغير السمات الفعلية على هذا المتصل، فتقترب من هذا الطرف أو ذاك تبعا لعوامل كثيرة تؤثر على التفاعل بين الأعضاء.

نجد العلاقات الاجتماعية فى الريف أقوى مما فى المدينة، حيث القرية صغيرة وتلعب علاقات القرابة والجيرة أدوارا قوية والنشاط الاقتصادى أكثر تجانسا. وكلما كبرت المدينة كانت العلاقات أضعف، حيث تتباعد الأسر، وتزداد درجة التخصص وتصبح العلاقات أكثر رسمية. وقد توجد بين سكان بعض الأحياء فى المدن علاقات قوية وخاصة فى الأحياء الفقيرة حيث يشعر الأفراد بتقارب أوضاعهم. وقد ترقى العلاقات بين أعضاء بعض الجماعات الثانوية إلى مرتبة عالية من القوة وإن ظلت ثانوية، حين تجمعهم قضايا مشتركة لها أهميتها، كما فى النقابات والأحزاب والجمعيات، حين يكون عليهم الدفاع عن قضاياهم الحيوية.

هنا ثلاثة معايير تساعدنا على التمييز، أولها وأكثرها أهمية، وجود أو

غياب فئتين اجتماعيتين على الأقل يمكن التعرف عليهما بوضوح، مثلا أسود وأبيض، أو رجل وامرأة، أو عامل وصاحب عمل. والمعيار الثانى ما إذا كان ثمة تباين قليل أو كثير بين اتجاهات الأفراد وسلوكياتهم داخل كل جماعة. والمعتاد أن تكون سلوكيات الجماعات تجاه بعضها البعض موحدة، بينما يظهر فى سلوكيات الأفراد تجاه بعضهم البعض مدى الفروق الفردية العادى. فقد يشتبك الناس مع الشرطة فى تظاهرة ما، لكن بعضهم يقيم صداقات مع بعض أفراد هؤلاء الشرطة على أساس شخصى بحت.

المعيار الثالث مدى التباين فى اتجاهات الشخص الواحد وسلوكه إزاء سائر أعضاء الجماعة. هل يتماثل رد فعل نفس الشخص تجاه عدد كبير من الأفراد الآخرين، كما فى حالة قوالب الرؤى الجاهزة العرقية أو النوعية، أم تتباين استجابة ذلك الشخص ذكرا أو أنثى تجاههم؟ باختصار، يمكن رؤية السلوكيات الاجتماعية واقعة على متصل يحدده قطبا "ما بين الجماعات" و "ما بين الأفراد". ويحدد التفاعل عند القطب الأول عضوية الفرد فى مختلف الجماعات والعلاقات فيما بين تلك الجماعات؛ وعند القطب الثانى يحدده الأفراد والخصائص الشخصية والعلاقات بين الأشخاص بدرجة أكبر (أنظر: روبرت براونBrown، 1988).

6-1-2 ديناميات الجماعة

يقصد بالديناميات التفاعلات والعمليات التى تتم داخل الجماعة. وفى هذا السياق، يتجه أعضاء الجماعة دائما إلى التوافق conformity مع جماعتهم، فيميلون لأن تتفق أحكامهم وآراؤهم مع أحكام وآراء غيرهم من الأعضاء. ويرجع ذلك إلى الحرص على البقاء فى الجماعة. ويحاول الفرد

أن يتوافق مع جماعة ما حتى قبل الانضمام إليها، بغرض تيسير الانضمام. ونحن نتوافق عادة مع الجماعات التى يهمنا أمرها، فهى بالنسبة لنا جماعات مرجعية نقيس عليها قيمة اتجاهاتنا أو سلوكياتنا. وهكذا لا نحاول تقييم أنفسنا فى عزلة، ولا بالقياس على أى شخص. وقد تكون جماعاتنا المرجعية أولية أو ثانوية.

يؤثر حجم الجماعة على العمليات أو التفاعلات فى داخلها. ويحدث أكبر قدر من التفاعلات بين الأعداد الصغيرة. وعندما يزيد حجم الجماعة تزداد صعوبة التفاعل، ويتجه أعضاء منها إلى تكوين مجموعات صغيرة ليزيدوا التفاعل فيما بينهم، مع بقاء مجموعاتهم الصغيرة داخل الجماعة الأكبر. ونلاحظ هذا فى أى اجتماع كبير قبل أن يبدأ الاجتماع بصورة رسمية. فبحضور عدد صغير فى البداية ينخرط هذا العدد فى النقاش، وعندما يزيد العدد تتكون منهم حلقات نقاشية صغيرة، ويستمر هذا إلى أن يبدأ الاجتماع الرسمى ويصبح على كل من يريد الحديث أن يطلب الكلمة، ولا يتحدث قبل أن يجئ دوره ويسمح له بالحديث.

درس جورج سيميل[24] George Simmel ديناميات أصغر الجماعات، وصك مصطلح الثنائى Dyad والثلاثى Triad كاسم للجماعات المكونة من شخصين أو ثلاثة بالترتيب. وبين شخصين اثنين تقوم أقوى العلاقات وأكثرها متانة، وهى أساس علاقات الزواج والحب وأقوى علاقات الصداقة. وقد فسر سيميل Simmel ذلك بأن التفاعل بين شخصين يكون مكثفا أكثر مما فى الجماعات الأكبر، حيث يحظى كل من الإثنين باهتمام تام من الآخر. ولكنه قال أيضا أن هذه العلاقة غير مستقرة.

---

[24] عاش فى الفترة 1858–1918

يرجع عدم استقرار الجماعة الثنائية إلى أنها تنهار بانسحاب أحد طرفيها، ولهذا تحتاج تلك الجماعة إلى دعم طرف ثالث. وفى الزواج مثلا، لا يرتبط الزوجان باتفاقهما وحدهما، بل يوجد أيضا رباط قانونى وشرعى. وكلما زاد حجم الجماعة زادت استقرارا، ففى جماعة من ثلاثة أشخاص، لو توترت العلاقة بين شخصين منها يتدخل الثالث للتوفيق. ذلك لأن كم العلاقات الثنائية بداخل الجماعة يزداد، وتكون الزيادة بعد ذلك أكثر من زيادة عدد الأعضاء. فبانضمام رابع إلى جماعة ثلاثية يجد الشخص الرابع ثلاثة آخرين يتفاعل معهم، وتزيد فرص التفاعل أكثر من ذلك لكل عضو جديد (أنظر: كيرت وولف Wolff، 1950).

هذا ولا تنحل الجماعة الكبيرة بانسحاب بعض أعضائها، إذ يبقى فيها عدد يكفى لبقائها. فهل يوجد حجم أمثل للجماعة؟ هذا يتوقف على الغرض من تكوينها. فالجماعة الثنائية هى الأكثر ملاءمة للعلاقات العاطفية، والجماعات الكبيرة أكثر ملاءمة لإنجاز الأعمال. ومن جانب آخر، تتأثر ديناميات الجماعة بالتنوع الاجتماعى، والأمر حينئذ يتعلق بالتفاعل ما بين الجماعات. ويرى عدد من الباحثين (أنظر: ماكيونيس وبلامر Macionis and Plummer، 1988) أن تركيب الجماعة يؤثر على التفاعل ما بين الجماعات بأربعة طرق.

أولا، تتجه الجماعات الكبيرة إلى الداخل، وهذا يبنى على تحليل سيميل Simmel، فالجماعة الكبيرة تنشأ بداخلها جماعات أصغر ليكون التفاعل أقوى بين أعضائها. وبالعكس، كلما صغرت الجماعة اتجه أعضاؤها إلى بناء علاقات مع جماعات أخرى.

ثانيا، الجماعات متنوعة العضوية، يتجه أعضاؤها للتفاعل مع أعضاء

من جماعات أخرى. مثلا، الجماعات التى تجمع فى عضويتها ذكورا وإناثا، وأعضاء من مناطق جغرافية مختلفة، يزداد تفاعلها مع الجماعات الأخرى أكثر مما لو كان أعضاؤها من نوعية واحدة.

ثالثا، تساوى الجمعيات فى المنزلة يسمح بالتفاعل فيما بينها، أكثر مما لو كانت جماعات طبقية مختلفة المنزلة.

رابعا، التباعد المكانى يصنع تباعدا اجتماعيا، فكلما تباعدت المسافات بين الجماعات قل التفاعل فيما بينها.

6-2 المنظمة

المنظمة جماعة كبيرة رسمية، تتكون لتحقيق أهدافها بكفاءة، ولا يرتبط بها أعضاؤها على أساس شخصى بل على أسس أخرى، لتحقيق أهداف متنوعة بدرجة عالية من الكفاءة. وهى رسمية بمعنى أن هناك قانونا ينظمها، ولهذا فهى لا تدار بعلاقات شخصية. ومثال ذلك الشركات والجمعيات الكبرى والهيئات الحكومية. ويمكن تصنيف المنظمات الرسمية بطرق مختلفة، والتصنيف الكلاسيكى وضعه أميتاى إتزيونى Amitai Etzioni (1975)، الذى قسمها إلى ثلاثة أنواع: نفعية، وتطوعية، وقسرية.

تتأسس المنظمات النفعية لتحقق نفعا ماديا لأعضائها، ومنها الشركات وغيرها من مؤسسات الإنتاج والخدمات. وهى تعمل لتحقق ربحا لأصحابها، ويعمل فيها الناس مقابل أجر يعيشون به. أما المنظمات التطوعية، فهى منظمات لا يتحتم على أحد أن ينضم إليها، مثلما يتحتم عليه أن ينضم إلى منظمة نفعية ليكسب عيشه. وتعمل المنظمات التطوعية لتحقيق أهداف يراها

الناس ذات قيمة معنوية. ويشمل ذلك منظمات خدمة المجتمع، والأحزاب السياسية والمنظمات الدينية، والمنظمات الأخرى ذات الأهداف الاجتماعية.

تبقى المنظمات القسرية، التى يدخلها الناس بالإجبار، خضوعا لما يقرره المجتمع، ومنها المنظمات العقابية كالسجون، والمنظمات العلاجية كالمصحات النفسية. وتتميز هذه المنظمات بأن أبوابها مغلقة ونوافذها عليها قضبان. ويسمى الخاضعون لهذه المنظمات نزلاء أو مرضى، وهم يبقون فيها لمدد معينة، وتعمل تلك المنظمات على تغيير مفهوم الذات لديهم، بحيث تتغير اتجاهاتهم وسلوكياتهم. ومن زاوية معينة يمكن اعتبار هذه المنظمات مزيجا من الأنواع الثلاثة، فهى قسرية بالنسبة لنزلائها، ونفعية للعاملين بها، وتطوعية بالنسبة لمن قد يخدمون فيها على أساس التطوع.

تتميز المنظمات الرسمية الكبيرة بأنها منظمات بيروقراطية. وقد يكون لكلمة البيروقراطية فى الثقافة المصرية مذاق غير مقبول، حيث اقترنت تلك الكلمة بما يعادل بطء العمل وتعطيل مصالح الناس، وفرض إتاوات عليهم أحيانا قبل تقديم الخدمة لهم. ولكن المعنى الفنى للمصطلح يختلف عن ذلك، فالبيروقراطية نظام لتفعيل الكفاءة، وإنجاز الأعمال الكبرى بناء على قواعد لا تسمح بالانحراف، وبطريقة مخططة لا تسمح بالعشوائية. ومع ذلك ترتبط البيروقراطية عمليا بعيوب وانحرافات، يذكرنا بها مذاقها الخاص فى الثقافة المصرية. وقد سبقت إشارة إلى مزيا وعيوب البيروقراطية كما كان يراها ماكس ويبر.

3-6 البيروقراطية

اهتم ماكس ويبر بدراسة البيروقراطية وأوضح مجموعة خصائص تميزها. وحسب رؤيته، تعمل البيروقراطية على أساس التخصص، بحيث يكون لكل فرد واجبات محددة تتطلب نوعية خاصة من المهارة. وتمارس البيروقراطية عملها بنظام هرمى، يخضع فيه كل موظف لرئيس أعلى منه مرتبة، ويوجه موظفين فى مرتبة أدنى. وهى تنظم العمل وفقا لقواعد وترتيبات تتحكم فى عمل المنظمة وفى البيئة المحيطة بها، بحيث يمكن التنبؤ بكل شئ يتعلق بالعمل. ويتم اختيار العاملين على أساس الكفاءة بمعنى المقدرة الفنية على أداء واجبات الوظيفة. وللقواعد أسبقية على المزاج الشخصى، ويتم توثيق كل شئ باتصالات ومذكرات وتقارير مكتوبة، تتراكم لتكون أساسا لتوجيه عمل المنظمة فى المستقبل.

هذه خصائص البيروقراطية. وما تتبعه من قواعد وإجراءات إنما تهدف إلى رفع كفاءة العمل. لكن هذا هو الجانب الرسمى، أما فى الواقع العملى فللبيروقراطية صورة أخرى، حيث تتأثر النتائج الفعلية لعمل المنظمة البيروقراطية بالخصائص الشخصية للأفراد الذين تتكون منهم، كما تتأثر بخصائص القادة. وكثيرا ما يستغل القادة سلطاتهم، وكثيرا ما ينسبون لأنفسهم ما يبتكره الموظفون الخاضعون لهم. وكثيرا ما يكتسب بعض الموظفين التابعين سلطات كبيرة ليست مفوضة لهم، ومثال ذلك نموذج السكرتيرة.

هنا مثلا، يلعب الاتصال دورا آخر، فالمعلومات يفترض أن تتوفر عن طريق المذكرات والخطابات والتقارير المتبادلة بين المكاتب، لكن شبكة الموظفين تستطيع الحصول على المعلومات أثناء انتقال تلك المكاتبات، ومن هذا الطريق تتسرب المعلومات التى يفترض أنها سرية. كذلك يستطيع الموظفون اختراق القواعد التنظيمية، وبهذا تنشأ داخل المنظمة بنية أخرى

غير رسمية، توازى البنية الرسمية. وقد صارت عيوب البيروقراطية معروفة.

لاحظ ماكس ويبر نفسه أن البيروقراطية تحول الفرد إلى ما يشبه سن الترس فى آلة، فتجعله يعانى من الاغتراب، وتختفى معالم شخصيته المتفردة، وبدلا من أن تكون البيروقراطية فى خدمة الإنسان يصبح الإنسان عبدا لها. وينتهى الأمر بانعدام الكفاءة، بعكس الهدف الرسمى للبيروقراطية، إذ يختفى الإبداع وينتفى الحافز إليه، وسط طقوس وتفاصيل إجرائية تقتله. وهذا يجعل المنظمة البيروقراطية فاقدة الهدف، إلا أنها تميل إلى البقاء، بما يشبه حالة القصور الذاتى، فيحرص قادتها على وظائفهم، وقد يصطنعون أهدافا تبرر بقاءهم.

تؤدى القواعد البيروقراطية إلى تأكيد انخفاض الكفاءة. وهنا يلاحظ أن الموظف يظل يشغل وقته بإطالة الإجراءات إذا لم يكن لديه ما يكفى لشغل وقته كله. وتبدو المنظمة مثقلة بالعمل، فيتم تعيين موظفين جدد، وهذا يشغل الوقت بإجراءات التعيين والتدريب، وتتضخم المنظمة بدون أن يزداد ما تنجزه. وهذا ما عرف باسم قانون باركينسون Parkinson ((أنظر: ماكيونيس وبلامر Macionis and Plummer، 1988: 174). كذلك لاحظ لورانس بيتر Peter أن الموظف يعمل بكفاءة ويرقى حتى يصل إلى موقع يكون فيه عند أقصى حدود كفاءته. ويظل يرقى بعد ذلك، بينما يكون قد تجاوز حدود كفاءته، وهكذا تدار المنظمة بقيادات منخفضة الكفاءة، لكنها تغطى انخفاض كفاءتها بعمل الموظفين فى المراتب الأدنى، وهذا ما يعرف باسم قانون بيتر (المرجع السابق).

يظل من أخطر عيوب البيروقراطية تركز السلطة فى يد الأقلية التى تحتل المناصب العليا. تتحكم هذه الأقلية من موقعها هذا فى الأكثرية. ويسمى

روبرت ميشيل Robert Michels هذه الظاهرة، الأوليجاركية السياسية political oligarchy، على غرار ما يسمى الأوليجاركية المالية وهى الأقلية التى تهيمن بأموالها على الاقتصاد. هذه الأوليجاركية السياسية تحتكر القوة وتهدد الديمقراطية، وتستفيد بقربها من الإعلام وسيطرتها على المعلومات، وما تتمتع به من مزايا أخرى. وبهذه المزايا تحصن نفسها من المساءلة، ويفقد الناس القدرة على محاسبة القيادات التى انتخبوها (نفس المرجع).

فى الحياة اليومية بعيدا عن الأجهزة الحكومية، تضع البيروقراطية الناس أيضا تحت مراقبة دائمة، فى إطار نظم مراجعة الجودة ومتابعة الأداء. وبقدر أهمية تلك المراجعة والمتابعة إلا أنها تسلب من الناس قدرتهم على المبادرة، وحقهم فى التفرد الشخصى. ويبنى التميز فقط على تنفيذ النظم الموضوعة وعدم الخروج عليها. ولكن نظم الإدارة تتطور الآن للسماح بالمبادرة فى إطار الإدارة الذاتية، وجماعات العمل المستقلة، والإدارة اللامركزية. وهذه التطورات وغيرها مما يمكن إضافته، يجب أن تعيد للفرد إنسانيته، وتسمح لكل فرد أن يبرز شخصيته، وأن يشارك فى تحمل المسئولية، وأن تتسع أمامه فرص الترقى بناء على مبادراته وقدراته الإبداعية.

الملاحظ حتى الآن أن كل محاولة لتشجيع الإبداع زيادة الإنتاجية ويرفع مستوى الأداء تتطلب فى الوقت ذاته التغلب على عيوب البيروقراطية (دروكر Druker، 1977). وإذا كان من الملاحظ أن الجماعات المتجانسة تحقق إنتاجا ماديا أعلى، فإن الجماعات المتنوعة تنتج أفكارا ومبادرات أكثر، ولهذا يجب الجمع بين الميزتين. ومن الباحثين (أوتسو وآخرون Ohtsu، 1999)، من يلاحظ أن تقدم اليابان لا يرتكز على التميز الفردى فى العمل بل على قيم التميز الجماعى والتضامن.

يبقى أن البيروقراطية الحكومية كثيرا ما كانت قادرة على انتهاك الحقوق الإنسانية بأعلى درجة من الإتقان. وقد يصل اغتراب الموظفين إلى حد تجاوز القيم والمشاعر الإنسانية وغياب الضمير. وهنا تكتسى البيروقراطية بوجه أسود، وتتمكن من أن تلزم الموظف الذى جردته من إنسانيته بتنفيذ الأوامر مهما كانت بشاعتة نتائجها. وهكذا أمكن ارتكاب جرائم القتل والتعذيب، باعتبارها واجبا وظيفيا كأى واجب وظيفى آخر. وقد حدث هذا فى بلدان كثيرة من العالم، وفى فترات مختلفة من التاريخ وما زال يحدث، وحدث فى مصر فى فترات توصف بأنها فترات تحول ثورى، وما زال يجد من يدافع عنه ويبرره باسم الواجب، وحتى باسم الثورة.

6-4 مجتمع الشبكة

مجتمع الشبكة، مصطلح استخدمه جان فان دايك Jan van Dijk عام 1991 ولكن ما كتبه حينذاك باللغة الهولندية لم يترجم إلى الإنجليزية إلا متأخرا (جان فان دايك van Dijk، 2005- a). والفكرة أن المجتمع فى طريقه لأن يصبح مجتمع الشبكة، فيجمع ما بين اتصال الأفراد واتصال الجماعات والاتصال الجماهيرى. وعن طريق الإنتترنت يمكن الاتصال بالعالم بحيث يتواجد العالم أيضا فى البيت وفى أماكن العمل. وتصبح أساليب الاتصال التقليدية عن طريق الخطابات والصحف أساليب قديمة تخطاها الزمن. هكذا ظهر ما يسمى الميديا الجديدة، وهى أساليب الاتصال الرقمى وتتميز بثلاث خصائص هامة.

الخاصية الأولى أنها تدمج معها كل تكنولوجيا الاتصالات، والخاصية الثانية أنها تفاعلية، بمعنى أن الاتصال متبادل والمعلومات يمكن تبادلها

ويمكن استرجاعه ما سبق إذاعته أو نشره عن طريق ما يسمى زر التحميل أو و التنزيل. وأما الخاصية الثالثة فهى أنها كودية. ومن خلال هذه الميديا الجديدة يمكن عقد الاجتماعات وتبادل المعلومات وتبادل السلع. وتنشأ عن ذلك شبكات من الأفراد وشبكات من الجماعات وشبكات من الاالشبكات، وترتبط تلك الشبكات ويرتبط الأفراد من خلالها باتصالات مباشرة وغير مباشرة، قد تعادل الاتصال وجها لوجه. وتنشا بهذا جماعة كبيرة العدد لا تحصرها حدود مكانية أو عددية.

بالنسبة لمانيويل كاستيل Manuel Castells، هذا هو التحول الاجتماعى الجديد، حيث تنظم البنية والأنشطة الاجتماعية حول شبكة معلومات إلكترونية. والمسألة ليست مجرد شبكة، بل نوع من الشبكات يقوم بإدارة وتجهيز المعلومات. وانتشار منطق الشبكات يغير كثيرا عمليات الإنتاج والخبرة والسلطة والثقافة ويغير نتائجها، وهذا يعنى أن الشبكة تصبح الوحدة الأساسية للمجتمع الحديث. والأهم فى هذا كله ليس الشبكة بل المعلومات فهو مجتمع المعلومات وليس مجتمع الشبكة لأنه لا تشكله التكنولوجيا فقط بل العوامل الثقافية والاقتصادية والسياسية. وهذه العوامل قد تدفع المجتمع إلى الأمام أو تعرقل تقدمه (مانويل كاستيل Castells، 1996).

بدأ هذا التحول منذ اختراع الاتصالات التليفونية، واتسعت بظهور التليفون المحمول والإنترنت. وبذلك صار مجتمع الشبكة الآن يشمل العالم كله، ولم يعد الاتصال الشخصى مقصورا على الاتصال وجها لوجه إذ يمكن تبادل المعلومات والأحاديث مهما بعدت المسافات. ومثلما يسمى هذا المجتمع مجتمع المعلومات يسمى العصر أيضا عصر المعلومات، وقد صارت المعلومات موضوعا للعمل، وصار إنتاجها عملية اجتماعية قائمة بذاتها،

تمثلها مثل أى عمليات اجتماعية أخرى. وهكذا يتجاوز التطور اجتماعى أنماط الجماعات الأولية والثانوية، وأنماط التنظيم الإدارى الحديثة.

يلاحظ فان دايك (van Dijk، 2005– b) ما يترتب على هذه التطور من تعميق عدم المساواة، فقد تعدى عدم المساواة أبعاده التقليدية فى توزيع الثروة والتعليم والسلطة والصحة وغير ذلك، وأضيف بعد جديد هو عدم تكافؤ الفرص فى التعامل داخل الشبكة. وقد صك لذلك مصطلحا آخر هو الانقسام الرقمى Digital Divide (المرجع السابق). ويترتب على كل ذلك تغير كبير فى دراسة علم الاجتماع، ما زال فى بداياته. وقد لاحت بشائر ثورة صناعية ثالثة، أحد أعمدتها شبكة الاتصالات، وعلى غرار تلك الشبكة تنشأ الآن شبكة جديدة لتبادل الطاقة، قلب الثورة الصناعية الجديدة.

التبادل بهذا الأسلوب هو عملية اجتماعية جديدة، منشأها أن الطاقة لن تتولد فقط فى محطات الطاقة الكبيرة، بل فى جميع المبانى سواء كانت منازل أو مكاتب أو مصانع أو حتى منشآت متحركة كالقطارات والسيارات. كل هذا يتحول إلى محدات تنتج الطاقة من مصادرها المتجددة، من الشمس والرياح وأمواج البحر وجوف الأرض. وتتبادل الوحدات الطاقة فتصدر أى وحدة ما لديها من فائض إلى الشبكة، وتأخذ أى وحدة ما ينقصها. ويكتمل التبادل بحسابات تحدد قيمة ما يستحق لكل وحدة أو عليها.

لا يقتصر الأمر على ذلك، فالتطور العلمى والتكنولوجى سيكون عاصفا، قد ينبئ الخيال العلمى ببعض أبعاده. لكن الخيال العلمى لا يكفى لتشخيص ما يترتب على ذلك من تغيرات اجتماعية سوف تكون هى أيضاعاصفة. وستصل نتائج تلك العواصف إلينا فى مصر شئنا أم لم نشأ، وعلينا أن نشارك بصورة إيجابية، ليحافظ المجتمع المصرى على كيانه. فهل نحن مستعدون؟

لقد كان معيار الأمية عندنا حتى الآن هو أمية القراءة والكتابة والحساب. وسرعان ما سيتغير هذا المعيار ليصبح عدم القدرة على التعامل مع الشبكة. ولن يكون هذا أولى تجليات التحول الاجتماعى الجديد.

لقد ظهرت تجليات ذلك التحول بالفعل، ولسنا فى انتظارها. ذلك أن مصر كانت رائدة فى إثراء التفاعل الاجتماعى من خلال شبكة الاتصالات، فكانت تلك الشبكة عنصرا أساسيا فى تنظيم ثورة يناير. كانت جماعات الشبكة عماد الحشد والدعوة، وكان التليفون المحمول مع الإنترنت، عماد الاتصالات التى نظمت حركة الثوار. وعبثا حاولت السلطات شل تلك الحركة بوقف اتصالات الإنترنت والتليفون المحمول، لكن عجلة الثورة كانت قد دارت وصار من المستحيل إيقافها.

7

علم الاجتماع الجزئى

تناولنا حتى الآن المجتمع والثقافات والمنظمات، وما طرأ على ذلك من تغير نتيجة تطور الصناعة وما بعد عصر الصناعة. وهذا هو علم الاجتماع الكلى macro-sociology أو دراسة المجتمع الكبير. ونتناول الآن الوحدة الأولية للبناء الاجتماعى، وهى الفعل الإنسانى فى موقف اجتماعى جزئى، وهو الفعل الذى يجعل الحياة الاجتماعية ممكنة. ويقصد بالفعل السلوك الإنسانى اليومى حين يذهب الناس للتسوق، أو يتناولون الطعام، أو يمارسون الحب، أو أى فعل اجتماعى آخر. وهذا هو علم الاجتماع الجزئى micro-sociology، أو دراسة التفاعلات الاجتماعية فى الحياة اليومية.

7-1 صناعة الحقيقة الاجتماعية

يظن كثير من الناس أن سلوكيات الفرد تخضع لما يسمونه طبيعته التى خلقه الله عليها، وأنها بالتالى ميل فطرى. ولكن الميل الفطرى هو ما يحدد سلوك الحيوان بناء على الدوافع البيولوجية، أما الإنسان فلديه دوافع أخرى تشكل سلوكه.. وقد يتوسع من يرون أنها طبيعة بشرية، فيقولون أن الله يتابع نشأة خلقه ويشكل شخصياتهم، فلا يقف الخلق عند حدود الخصائص البيولوجية. ومن هذه الزاوية يظنون مثلا أن المرأة عاطفية وأن الرجل أكثر عقلانية، لأن الله أودع فيهم تلك الصفات، ليكون كل منهم مهيأ لما خلق له.

هكذا سادت لفترة من الزمن فكرة أن الإنسان يتصرف حسب طبيعة بشرية أودعت فيه عند خلقه. وقد استند إلى هذه الفكرة من كانوا يدافعون عما عرف باسم الاستعمار، فكانوا يبررون ذلك بأنهم نوع إنسانى أرقى. وما زالت الاتهامات توجه إلى شعوبنا بأنها متخلفة بطبيعتها. وقد نسمع ذلك حتى من بعض المتحدثين فى بلادنا، نظرا لطول الفترة التى عشناها تحت سيطرة قوى أجنبية. وقد عاشت بعض الأجيال طوال حياتها فى ظل هذه السيطرة. ولا غرابة أن يتولد لديهم نتيجة لذلك شعور بأن قدراتنا شعوبنا أقل من قدرات تلك الشعوب الأجنبية.

الأمر ليس كذلك على الإطلاق. وصحيح أن الإنسان يتميز بما نسميه طبيعة بشرية، وأنه يرث خصائص كثيرة منذ مولده، لا تقتصر على الخصائص البدنية كشكل الوجه ولون البشرة، بل يولد ولديه قدرات معينة. ولكن إذا كانت الخصائص البدنية ثابتة لا تتغير، فالمؤكد أن القدرات ليست ثابتة، بل يستطيع الإنسان أن ينميها فتبرز وتقوى، وقد يهملها فتظل ضعيفة كما كانت عندما ولد بها. وقد تتاح له فرص لتطوير قدراته وقد لا تتاح. ويتوقف ذلك على نوع الخبرات التى يمر بها فى حياته، والطريقة التى يتعامل بها مع تلك الخبرات، والتى قد تساعده أو لا تساعده على تفسير تلك الخبرات واستيعابها.

من هنا قد تتطور القدرات أو تبقى كامنة أو تضعف. ولا بد أن كثيرا منا لاحظوا الأطفال الرضع، وقد تميزوا بحساسية تجاه الموسيقى مثلا أو تجاه الصور، وهى إشارة إلى قدرة موسيقية أو فنية موروثة. لكنهم قد لا ينتهى بهم الأمر أن يكونوا موسيقيين أو فنانين إلا إذا اهتم أحد بتنمية تلك القدرات. وهكذا يولد الطفل فى جميع الأمم لا حول له ولا قوة، ويتعلم خلال حياته على

ما يعلمه له الكبار ويعلمه له المجتمع. ومن خلال تلك العملية، توجه قدراته وذكاؤه فى اتجاه معين، فيصبح مهندسا أو طبيبا أو عالما، وقد يتجه اتجاها آخر تماما، فيتعلم أن يكون لصا، أو شحاذا أو غير ذلك.

بهذا المعنى لا يكون اللص لصا لأنه يولد وفى داخله مكون اللصوصية، بل لأنه تعلم ذلك. وهناك إذن طبيعة بشرية، لكنها لا تعنى أننا نتشكل كما تتشكل المادة فى قوالب لا تتغير أشكالها بعد صنعها، وأن القوالب التى تشكل حياتنا هى مورثاتنا الجينية. وإنما الطبيعة البشرية تجعل من الممكن تطوير ما لدينا من قدرات، من خلال التنشئة. وبهذا الأسلوب يتشكل ما هو اجتماعى، وبنفس الأسلوب يعيد الناس تشكيل أنفسهم بعد أن يكبروا. وهم على الأقل يحاولون أن يظهروا بالصورة التى يقبلها المجتمع، أو التى يتوقعها.

على هذا الأساس، لا يقدم الناس عن أنفسهم دائما صورة حقيقية، بل يحاولون غالبا تجميل تلك الصورة. وغالبا ما نتحفظ فى تقبل كل ما نراه أو نسمعه منهم، وحين نتحدث عن أنفسنا نحن أيضا لا نقول الحقيقة كاملة، وقد نبرر ذلك بأنه ليس من الضرورى أن يعرف الناس عنا كل شئ، وخاصة فى بداية التعارف. وتظل لنا خصوصياتنا، وقد تبقى لنا أسرار لا نبوح بها على الإطلاق أو لا يعرفها سوى بعض المقربين إلينا. ولهذا يقال أن الحقيقة الاجتماعية يتم بناؤها، وأنها عرضة للتغيير والتعديل، وهذا هو أساس النظرة البنيوية الاجتماعية.

بهذا المعنى يقال أنه لا توجد حقيقة اجتماعية ثابتة، لأن المجتمع يصنع عالمه الإنسانى ويغيره ويعدله. وبهذه الصورة تصبح التفاعلات الاجتماعية أشبه بعملية تفاوض لمعرفة الحقيقة، وتنطوى المواقف اليومية على نوع من الاتفاق على طبيعة كل موقف، ويظل كل طرف يدرك الموقف ويفسره حسبما

يتفق مع مصالحه. وهذه هى فكرة البنيوية، وما يسميه بيتر بيرجر وتوماس لوكمان (Berger and Luckman 1967)، "البناء الاجتماعى للحقيقة"، تعبيرا عن قيام الناس بصنع الحقيقة خلال تفاعلاتهم الاجتماعية. وهنا يجب أن ننتبه إلى فارق دقيق بين الحقيقة التى تصنعها مواقف الأفراد وسلوكياتهم اليومية، وبين حالة المجتمع.

لا تتشكل حالة المجتمع من خلال موقف فرد واحد بل بمواقف مجموع الأفراد. والأرجح ألا يتفق جميع أفراد المجتمع على موقف واحد تجاه القضايا المختلفة، وما نسميه حالة المجتمع هى حصيلة مواقف مجموع أفراده. وفى جميع الظروف تكون هناك غلبة لموقف معين، يصبح هو الموقف الرسمى للمجتمع، وما يجب أن يكون. ويصبح على جميع الأفراد أن يتسقوا مع ذلك الموقف الذى له الغلبة. وحين يحاول الفرد تجميل صورته لكى يقبلها المجتمع، قد يخفى حقيقة حالته كفرد، لكن موقفه هذا يؤكد حالة المجتمع. أما كيف تصبح الغلبة لموقف معين ويصبح هو الموقف الرسمى للمجتمع، فهذا موضع خلاف فلسفى سبق الإشارة إليه.

يتعلق الموقف الفلسفى بتفسير حالة المجتمع، ونستطيع الآن أن نستبدل تعبير "حالة المجتمع" بتعبيرات أخرى مثل موقف المجتمع أو وعى المجتمع. والموقف هو تعبير عن الوعى بطبيعة الحال، سواء كان ذلك الوعى حقيقيا أم زائفا. وتتعلق القضية الفلسفية بكيفية تشكل هذا الوعى والدور الذى يلعبه، فهل يتشكل الوعى أولا ثم يشكل الواقع أم أن العكس هو الصحيح؟ تقول الفلسفة المثالية أن الوعى يتشكل أولا، وتقول الفلسفة المادية أن الواقع يتشكل أولا، وقد سبق أن أشرنا إلى هذا الخلاف[25]. ما يحدث بعد ذلك فى الواقع

[25] الفصل الخامس عن "الثقافة" فى القسم الخاص بدراسة الثقافة.

العملى أن الفرد يتلقى تعاليمه من المجتمع، ويلقنه المجتمع تلك التعاليم، فيما يعرف، فيما يعرف بالتنشئة الاجتماعية.

7-2 التنشئة الاجتماعية

التنشئة الاجتماعية عملية تتشكل من خلالها حياة الفرد فى المجتمع الإنسانى، فهى كما سبق القول لا تتشكل على أساس الحقائق البيولوجية وحدها. وخلال التنشئة تصاغ سلوكيات الفرد على أساس الخبرات الاجتماعية التى يكتسبها. وبتراكم هذه الخبرات يتعلم قواعد التعامل اليومى، ويتسق مع أنماط الثقافة السائدة فى المجتمع. بهذه العملية ينقل المجتمع ثقافته من جيل لجيل ليحافظ على بقائه. وهذا فرض لا يمكن إثبات صحته بإجراء تجربة يعزل فيها بعض الأطفال عن المجتمع لاختبار أثر التنشئة، فهذا مسلك غير أخلاقى. ويستدل الباحثون على أثر التنشئة من أحداث نادرة. أما كيف تحدث التنشئة فقد تطورت نظريات عديدة فى هذا الشأن، تبنى على الآليات السيكولوجية، أو على آليات التفاعل الاجتماعى.

7-2-1 أثر التنشئة بشكل عام

يتبين أثر التنشئة من وقائع نادرة تعتبر بمثابة تجارب حدثت بالصدفة. من هذه الوقائع حادث الطفلة الأمريكية "أنا Anna"، وهى طفلة ولدت عام 1932 فى بنسلفانيا، من علاقة غير شرعية لأم كانت مضطربة عقليا. ولم يطق جد الطفلة أن تبقى معه فى بيته مع أمها المضطربة، فتم إيداعها فى البداية فى دار للرعاية. ولما لم تدفع الأسرة تكلفة رعايتها أعادتها الدار لأمها.

لكن الجد عزلها فى قبو بأعلى البيت، وقيد يديها فوق رأسها بحيث لا تستطيع أن تتحرك، ولم يقدم لها من الطعام سوى الحد الأدنى الذى يبقيها فقط على قيد الحياة. وعاشت الطفلة فى هذا الوضع وذلك المكان خمس سنوات كاملة، لم تتحدث مع إنسان ولم تقم أى علاقات اجتماعية.

حين تسربت القصة سارعت السلطات المحلية لاستقصاء الأمر، ونقلت الطفلة إلى مصحة. وكانت يداها ورجلاها عند اكتشافها أعوادا ضامرة، وكانت لا تمشى ولا تتكلم ولا تبتسم ولا تضحك ولا تغضب، فكان لها عالم خاص بها. وبعد عام من العلاج والرعاية بدأت تمشى، وبعد عام ونصف آخرين أمكنها أن تلعب ببعض اللعب، وفى عمر الثامنة كانت كطفل فى الثانية. ولم تدرك معنى اللغة إلا فى سن العاشرة، لكن عجزها اللغوى قد يعزى جزئيا إلى الوراثة، حيث كانت أمها تعانى نفس العجز. وهذه مشكلة لم تكتمل دراستها لأن الطفلة ماتت فى العاشرة بمرض فى الدم، والأرجح أن سنين الحرمان وإساءة المعاملة تركت دمارا لا يمكن علاجه.

كانت هناك حالة مماثلة فى نفس الوقت تقريبا لطفلة تسمى إيزابل، عاشت فى عزلة لمدة 6 سنوات، بعكس الحالة الأولى استفادت إيزابل ببرامج سيكولوجية خاصة، فكانت بعد أسبوع من بدء العلاج تحاول أن تتكلم، وبعد عام ونصف كانت قد تعلمت حوالى 2000 كلمة، وفى الرابعة عشرة كانت عادية تقريبا فكانت فى الصف السادس الابتدائى. وهكذا تمكنت برعاية مكثفة أن تعوض فى عامين عزلة السنوات الست. وتمثل حالة هاتين الطفلتين وأطفال آخرين نشأوا فى عزلة وفى ظروف مختلفة، تجارب تمت بصورة تلقائية، توضح مفهوم التنشئة الاجتماعية (أنظر: ماكيونيس وبلامر Macionis and Plummer، 2008).

مثل هذه الوقائع تبين أن الفرد يعيش وينمو بدنيا فى جميع الأحوال، لكنه لا يصبح إنسانا له شخصية وتاريخ شخصى من التفكير والمشاعر والأفعال إلا باكتساب الخبرة الاجتماعية، فبهذه الخبرة يكتسب الثقافة الاجتماعية. ويكتسب الطفل الخبرات الضرورية لذلك خلال عملية التنشئة.

7-2-2 الآليات السيكولوجية للتنشئة

أسس سجموند فرويد Sigmund Freud التحليل النفسى، ولكن أعماله تسهم كثيرا فى فهم التنشئة الاجتماعية. يرى فرويد أن الحاجات البيولوجية تلعب دورا هاما فى النمو الاجتماعى، ويحدد حاجتين أساسيتين، إحداهما الحاجة إلى اللذة ويسميها إيروس eros (كلمة يونانية تعنى إله الحب) أو غريزة الحياة. وفى مواجهة تلك الحاجة توجد الدوافع العدوانية ويسميها ثاناتوس thanatos (كلمة يونانية معناها الموت) أو غريزة الموت. ويفترض فرويد أن هاتين القوتين المتعارضتين تعملان على مستوى اللاوعى، وتسببان توترا داخليا عميقا.

أدمج فرويد هاتين القوتين فى نموذج للشخصية يتكون من ثلاثة أجزاء. وقد سمى الجزء الأول "الهو" أو id (كلمة لاتينية معناها "هو")، ويمثل الدوافع الإنسانية الأساسية. وهذه قوة غير واعية مرتبطة بالحاجات البيولوجية وتتطلب الإشباع الفورى، وتوجد منذ الميلاد، وإشباعها يتطلب اللمس والاحتضان وكل خبرات الإثارة العصبية والجنسية. وهذا التوجه نحو الذات يلقى فى النهاية مقاومة من المجتمع، وبسبب هذا التعارض الثقافى فإن كلمة "لا" من أوائل الكلمات التى يفهمها الطفل.

لكى يتجنب الطفل الإحباط الذى قد ينتج عن تلك المقاومة، يتعلم أن

يتعامل بطريقة واقعية، وبهذا التكيف يتشكل الجزء الثانى من الشخصية وهو "الأنا" ego (كلمة لاتينية معناها "أنا"). وهذا "الأنا" يوازن بين دوافع البحث عن اللذة وبين ما يتطلبه المجتمع، ويبدأ تكوينه حين يعى الطفل وجوده كشخص، ويعرف أنه لا يمكن الاستجابة لكل ما يطلبه. وبعد ذلك تتطور الشخصية بتكوين "الأنا الأعلى" superego، وهو القيم والمعايير الثقافية التى يختزنها الطفل فى صورة الضمير، نتيجة اعترافه بسلطة والديه.

تتولد عن ذلك توترات جديدة، فبعد أن كان الطفل كتلة من المشاعر البدنية المختلطة، تختزل فى الشعور بالسرور أو الألم، تنشأ مفاهيم الخطأ والصواب الأخلاقية. ويستمر الصراع بين "الهو" وبين "الأنا الأعلى"، وفى الشخص السوى ينظم "الأنا" هذا الصراع. وهنا يحدث "الكبت" .والمعتاد أن يتم حل الصراع عن طريق "الإعلاء" sublimation الذى يحول الدوافع الأنانية إلى أنشطة مقبولة للمجتمع. وتقود الدوافع العدوانية إلى الألعاب الرياضية التنافسية، وتقود الدوافع الجنسية فى النهاية إلى الزواج.

عبر هذا الطريق، تتطور شخصية الفرد، ويتغلب على دوافع اللذة الغريزية، ويصبح شخصا اجتماعيا لديه وازع من ضميره. وأى صراع لا يتم حله فى فترة الطفولة، ينتج عنه اضطرابات حين يكبر الطفل. وبهذا التحليل يساهم فرويد فى بيان كيفية حدوث التنشئة الاجتماعية 0فرويد Freud، 1949). ولكن هذا لم يؤثر كثيرا على تطور علم الاجتماع، وكانت هناك نظريات أخرى تحاول تفسير نفس العملية.

7-2-3 التنشئة وآليات التفاعل الاجتماعى

يتفاعل الطفل اجتماعيا فى بداية حياته مع والديه ثم يتفاعل مع أقرانه وغيرهم، ومن خلال هذه التفاعلات تحدث التنشئة. ولكن تقول بعض النظريات أن التنشئة لا تفسر سوى جزءا صغيرا من المعتقدات والسلوكيات الإنسانية.

- **جورج ميد George Mead والذات الاجتماعية**

يذكرنا جورج ميد بالسلوكية فى علم النفس عنما يسمى التنشئة الاجتماعية، السلوكية الاجتماعية. والفرق أن السلوكية فى علم النفس تتناول السلوك الخارجى أما عند ميد فهى التفكير الداخلى وهو ما يعتبره السمة المميزة للإنسان. والمفهوم المحورى عنده هو مفهوم الذات وهى ليست جزءا من الجسم، ولا توجد عند الميلاد، ولا ترتبط بالدوافع البيولوجية، بل تتكون من خلال الخبرة الاجتماعية. وتتضمن تلك الخبرة اتصالا إنسانيا تستخدم فيه رموز كالكلمات والإشارات، لها معان يدركها الكائن الإنسانى، وعندما يتلقى رمزا من شخص ما، لا يدركه كفعل أتى به ذلك الشخص، بل يدرك المعنى المقصود.

مثلا، حين يرفع شخص يده بالتحية، لا نفهم أن شخصا رفع يده، بل نفهم أنها التحية. ولكى نفهم المقصود نتخيل أنفسنا مكان الشخص الآخر، فنرى أنفسنا ونحن نفعل ما يفعله. وبذلك يمكننا التنبؤ بموقف الآخرين منا قبل أن نأتى أى فعل. وهكذا يتضمن التفاعل الاجتماعى أن نرى أنفسنا بعيون الآخرين. ولذلك يفقد الفرد ثقته فى نفسه إذا اعتبره الناس محدود القدرات. ومن هذا المنظور اعتادت المرأة أن ترى نفسها ضعيفة وقليلة الحيلة لأن الرجال يرونها هكذا. وحين ترى ذاتها من ذلك المنظور أى بعين الرجال، يرى

الرجال أنفسهم بعيون النساء فيرون أنهم الأقوى وأن المرأة يجب أن تكون معتمدة عليهم.

برؤية أنفسنا كما يرانا الآخرون على هذا النحو، نمارس لعب الأدوار. ويفهم ميد أن الذات لها جانبان. الجانب الأول أن الذات فاعل subject، وذلك حين تباشر الفعل الاجتماعى. ويسمى ميد ذلك الجانب "I" وهى ضمير المتكلم الفاعل المفرد (كأن يقول الفرد "أنا"). والجانب الثانى أن الذات مفعول به object، وذلك حين نرى أنفسنا بعين الآخر، ويسمى ميد ذلك الجانب "Me" وهى ضمير المتكلم المفعول به المفرد (هى فى العربية ياء المتكلم، حين يقول الفرد "معى" أو "لى" أو "بى" على سبيل المثال).

بديهى على أى حال، أن يتزامن تراكم الخبرة الاجتماعية مع النمو البيولوجى، فالطفل فى بداية حياته لا يعرف الرموز، ويقلد الكبار فقط، ويستنتج ميد أن الطفل فى هذه المرحلة ليس له ذات. وبعد ذلك يتعلم اللغة والرموز الأخرى، ويمارس لعب الأدوار، ويلعب فى البداية دور الأشخاص الرئيسيين فى حياته كالأب والأم. وفى مرحلة تالية يلعب أدوار أفراد كثيرين، ويمارس اللعب الجماعى. وأخيرا، يدمج القيم والمعايير العامة فى الذات، ويعبر ميد عن ذلك بمصطلح الآخر العام، وهو صورة تجريدية تقوم فيها القيم والمعايير الثقافية العامة مقام الآخر، ويستخدمها الفرد لتقييم ذاته.

لا يمثل نمو الذات بهذا المعنى نهاية التنشئة، فتراكم الخبرة الاجتماعية لا يتوقف. ولهذا يرى ميد أن تغير الظروف قد يعيد تشكيل ذواتنا، وهكذا لا تتوقف التنشئة عند مرحلة عمرية معينة. وباختلاف المجتمعات تختلف الخبرات فى المراحل العمرية المختلفة، ولهذا تتغير ثقافة المجتمعات فتحذف بعض عناصرها وتضاف عناصر أخرى. وكذلك تحدث تغيرات خاصة فى

ثقافة شرائح المجتمع المختلفة، باختلاف الظروف الخاصة لكل شريحة سواء باختلاف الطبقة أو العرق أو النوع (جورج ميد Mead، 1962).

- **جوديث هاريس Judith Harris وأثر الجينات**

طورت جوديث هاريس (Harris، 1995)، نظرية التنشئة من خلال الجماعة Peer Socialization. وتقول هذه النظرية، أن شخصية الطفل فى سن المراهقة يحدد خصائصها تفاعله مع الأقران فى الطفولة والمراهقة، وأن سلوك الوالدين وبيئة المنزل، لا أثر لها فى تكوين الخصائص السيكولوجية فى هذه المرحلة العمرية. وقد اعتمدت فى هذا على نتائج عدد من البحوث كانت مزيجا من بحوث الجينات السلوكية، وعلى نظريات ديناميات الجماعات، والتعلم من خلال السياق، ونظرية التطور.

أشارت بعض البحوث (إليانور ماكوبى وجون مارتن Maccoby and Martin، 1983) عن التفاعل بين الطفل والوالدين إلى أن سلوك الوالدين وبيئة المنزل إما أن يكونا بلا تأثير أو أن يكون تأثيرهما شديد التباين بين الأطفال. وأشار بعض بحوث الجينات السلوكية إلى أن ما يصل إلى 50% من خصائص شخصيات المراهقين تعزى للفروق الجينية (ماكجيو وآخرين McGue et al.، 1993). ووجد بحث آخر (بلومين ودانييل Plomin and Daniel، 1987) أنه لا يعزى للبيئة التى ينشأ فيها الطفل سوى 10% تقريبا من تلك الخصائص. وجاء مزيد من التفسير من بحث بقول أن أكثر من 20% من الفروق فى الخصائص، يعزى لأخطاء القياس (بلومين Plomin، 1990).

ترى هاريس فى ضوء تلك النتائج، أن تطوير خصائص المدى الطويل

فى الشخصية بعيدا عن المنزل مفيد للتطور لأن النجاح فى المستقبل يرجح أن يعتمد على التفاعل مع الأقران أكثر من التفاعل مع الوالدين والإخوة. كما أن تشابه الجينات مع الوالدين يجعل تطور الشخصية خارج بيئة المنزل يؤدى إلى مزيد من التنوع بين الأفراد ويزيد نجاح عملية التطور. وهذه فروض تبنى على نظرية لم يتم اختبار صحتها بصورة حاسمة، فما زال من المحتمل أن يكون عدم ظهور أثر لسلوك الوالدين ناتجا عن أن الفروق شديدة التباين كما تقول النظرية ذاتها.

نعم، هناك تأييد متزايد لتأثير الجينات على السلوك بالتفاعل مع البيئة (رايدلى Ridley، 2003)، ولتوارث الأثر الجينى بنسب مختلفة بعد أن يحدثه التفاعل مع البيئة (كندلر Kendler، 2007). ولكن نقطة الضعف أن النظرية اعتمدت على بحوث عن المراهقين، والمراهقة مرحلة تمرد على سلطة الوالدين. وإذا اختفى فى هذه المرحلة أثر سلوك الوالدين فهذا قد يكون أيضا محاولة مقصودة للاختلاف. وعندما تأخذ الدراسات ذلك فى الاعتبار، سوف يجد الباحثون وسيلة لكشف ما يحاول المراهق إخفاءه.

3-7 الفرد والمجتمع والأجيال

تمر حياة الفرد بمراحل عدة، يمكن تقسيمها بطرق مختلفة، وحياة الفرد بكل مراحلها جزء من حياة المجتمع، فهى تقع فى سياق أحداث ووقائع يمر بها المجتمع ككل. لهذا تختلف السمات المميزة لكل جيل من الأفراد. ويتميز أفراد كل جيل بسمات مشتركة يكتسبونها من الظروف المشتركة التى عاشها جيلهم. ويمكن على هذا الأساس أن نتحدث لا عن الأجيال فى قطاع عرضى

يمتد زمنا معينا أو يمثل مرحلة عمرية، كأن نتحدث عن جيل الآباء أو الأبناء أو الأحفاد، يمكننا الحديث عن فوج تبدأ حياته فى عام معين أو وقت حدوث واقعة معينة.

ا غالبا ما نهتم بأفواج تبدأ أعمارها فى تواريخ وقوع أحداث هامة، نتوقع أن تترك سمات مختلفة فى حياة الجيل. وقد أدخلت ثورة 1952 تغيرا فى حياة المجتمع المصرى، ثم ترتب على نكسة عام 1967 تغيرات من نوع آخر، وكانت حرب أكتوبر عام 1973 نقطة تحول أخرى. ولأهمية هذه الوقائع نستطيع أن نتحدث عن جيل ثورة 1952، أو جيل النكسة، أو جيل حرب أكتوبر أو غير ذلك. وثمة وقائع من نوع آخر، فقد كانت هناك حركات سياسية تركت أثرها، ويمكن بالتالى أن نتحدث عن أجيال تنتمى لتيارات سياسية معينة.

النوع الأول من الأجيال يمثل تقسيما بنيويا، يضع الجيل فى سياق حياة المجتمع بأسره. أما النوع الثانى فيبنى على تقسيم ذاتى، يمثل فيه الجيل جماعة أو تيارا داخل المجتمع. على سبيل المثال، جيل المصريون الذين ولدوا عام 1952 وقت استيلاء العسكريين على السلطة، شهد وقائع عامة مرت بالمصريين جميعا فى تلك الفترة. تأثر بقوانين الإصلاح الزراعى وبناء السد العالى ودعوة الوحدة العربية وبتمصير المنشآت الأجنبية عام 1957، ثم موجة التأميم فى الفترة 1960–1964. لكن جيلا يساريا أو جيلا ينتمى لحركة سياسية دينية، بدأ حياته عام 1952 أيضا، مر بجانب ذلك، بتجارب اعتقال وتعذيب وعزلة وراء الأسوار عدة سنين.

عند الدراسة قد نكتفى بالسمات العامة لكل جيل، وسيمكن فى هذه الحالة تقسيم حياة الفرد إلى مراحل عمرية. وقد نكتفى بثلاث مراحل هى الطفولة

والشباب والكهولة، لكن هناك تقسيمات أخرى تأخذ فى اعتبارها سمات مشتركة لمراحل من الطفولة ومن الشباب ومن الكهولة، وبالتالى يقسم العمر كما يقسمه إيريك إيركسون (Erickson ، 1980) إلى ثمانية مراحل هى مراحل الرضاعة، والطفولة المبكرة، واللعب، وعمر المدرسة، والمراهقة، وصغار البالغين، والبالغين، والمسنين. وقد تقسم المرحلة الأخيرة إلى مراحل، وغير ذلك من التقسيمات.

بهذا التقسيم أو بغيره، لكل مرحلة عمرية أوضاعها ومشكلاتها، وحسب التركيب العمرى للمجتمع تزداد أو تقل نوعيات من تلك المشكلات. فى الطفولة توجد مشكلات النمو وأسلوب التنشئة وأساليب التعليم ومشكلات الانحراف. وفى مرحلة لاحقة بعد ذلك تأتى مشكلات التعليم الجامعى ثم تظهر مشكلات التوظف والبطالة والأجور، ومشكلات الزواج والطلاق، وتفكك الأسر، ومعدلات الإعالة، وأنواع المشكلات الاقتصادية المختلفة. وفى المراحل المتأخرة تظهر مشكلات المسنين وتعرضهم للعزلة وحاجتهم لرعاية صحية تتكاثف مع تقدم العمر.

تختلف المشكلات على أى حال باختلاف المجتمعات. ينخفض فى المجتمعات التقليدية مستوى الرفاهية، وترتفع معدلات المرض والوفاة، ومعدلات المواليد. وكلما تقدم المجتمع اقتصاديا وتكنولوجيا تتحسن مستويات المعيشة ويتحسن التعليم والرعاية الصحية، فتطول الأعمار وتنخفض معدلات المواليد، ويتغير تركيب السكان نتيجة لذلك فتزيد نسبة كبار السن وتقل نسبة الأطفال، ويزيد عبء الإعالة على جيل الشباب. وبالمثل تختلف المشكلات من مرحلة تاريخية لأخرى فى كل مجتمع.

7-4 صناعة المواقف

بمنطق أن الناس يصنعون الحقائق الاجتماعية، يمكن الحديث عن صناعة المواقف، وهى الوقائع اليومية التى تضع الأفراد وجها لوجه، وتصدر فيها أفعال وردود أفعال من أطراف الموقف. نحتاج هنا أن نحلل المواقف لنعرف أنماط السلوك فى كل حالة، ولنعرف كيف تبنى هذه الأنماط. وبهذا يمكننا فهم الحياة اليومية والهوية وأشياء أخرى.

7-4-1 تحليل المواقف

يمثل سلوك الناس فى مواجهة الآخرين بما يصنع مواقفهم المختلفة، موضوعا هاما فى علم الاجتماع الجزئى. وقد تناول إرفنج جوفمان (Goffman، 1982) هذا الموضوع وكان يرى الناس فى أى موقف كأنهم ممثلون، يؤدون أدوارا على المسرح. ويصبح الموقف من هذا المنزور كأنه مسرحية، ويتمثل جزء من البناء المسرحى فى مكونات مادية أشبه بالديكور، مثل نوعية المكاتب ووضعها ووضع السكرتارية، كما تمثل الملابس أحد العناصر. وبهذا يبعث الشخص رسالة للمتعاملين معه تعبر عن أهميته على سبيل المثال.

تتخذ السلوكيات بهذه الصورة طابعا اجتماعيا وتصبح جزءا من المعايير والثقافة الاجتماعية. المهنيون كالأطباء والمهندسين والمحامين، مثلا يلبسون ملابس أنيقة، وقد يلبس بعضهم ملابس خاصة كالمعطف الأبيض للطبيب، أو الخوذة للمهندس، ويجعلون مكاتبهم عادة حجرة خلفية يمر العميل قبلها على سكرتارية وموظفين قد يطلبون منه بيانات مختلفة تمهيدا للمقابلة. وداخل

حجرته يتخذ المهنى مجلسه خلف مكتب كبير بينما يعطى للعميل كرسيا فقط. وتوجد فى العادة أجهزة وأدوات وقد توجد مكتبة مليئة بمجلدات أنيقة، وكل هذا تعبيرا عن مقدار علمهم وقدرتهم الفنية.

من جانب آخر، يعبر الناس عن أنفسهم أيضا بإشارات وتعبيرات غير لفظية. والإشارات متنوعة وتعبر عن معان كثيرة، هى ما يسمى لغة الجسد. وتعبيرات الوجه أكثر العناصر نقلا للمعلومات دون كلام. مثال ذلك ابتسامة قد تكون متعمدة لتشجيع شخص على الحديث، أو تكون تلقائية تعبيرا عن السرور، وقد تكون ابتسامة خجل أو ابتسامة عريضة تعبر عن الرضا عن النفس كما فى حالة تحقيق نجاح من نوع ما. وحركة العين أيضا لها معانيها، وكذالك حركة اليد، وقد تستخدم إشاراتها لتأكيد تعبيرات لغوية تصاحبها، كأن تحمل معانى التهديد أو معانى الامتنان، أو غير ذلك.

يستخدم التقاء العينين لتشجيع طرف على الحديث أو بدء الاتصال، وتجئ الابتسامة تأكيدا لذلك. وربما نتذكر قول الشاعر أحمد شوقى "نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء". ومهما يكن إتقان التعبير، هناك سقطات أو حركات تلقائية لا إرادية، تمثل ثغرات تكشف ما وراء المظهر. وبمثل هذه الحركات يمكن دائما أن نكتشف الخداع، وخاصة إذا كان المخادع يحاول كتمان انفعالات قوية بداخله. وبناء على ذلك يمكن اكتشاف الكذب مثلا، عن طريق أجهزة تقيس ضغط الدم وسرعة التنفس وسرعة ضربات القلب.

تكشف مواقف الناس تجاه أخطاء الغير عن تفهم لذلك، فغالبا ما نسارع لمساعدة الآخرين على تجاوز سقطة لسان أو خطأ لغوى أو تصرف محرج. ذلك لأن الجميع معرضون لنفس الموقف ونفس الحرج، وهم يؤدون أدوارهم. أما عدم القدرة على أداء الدور، فالرد عليها يكون تجاهلا وإعراضا وربما

سخرية أو اتهاما لمن يصر على القيام بدور هو عاجز عن إتقان أدائه، بأنه مختل نفسيا أو عقليا. وتمثل المرأة ووضعها الاجتماعى مجالا واسعا لدراسة التعبيرات غير اللفظية، بسبب حساسية المرأة لتلك التعبيرات.

7-4-2 فهم الحياة اليومية

وفقا لنموذج الاتصال الرمزى نحن الذين نصنع الحقيقة الاجتماعية، وفى هذا السياق تصبح الحقيقة مغلفة بما ننسجه حولها. ولكننا نستطيع أن نكتشفها بأساليب التحليل المناسبة. وهذه وظيفة المنهجية الإثنية Ethnomethodology وتختص بدراسة كيفية فهم وقائع الحياة اليومية. قد وابتكر هذه المنهجية هارولد جارفينكل (Garfinkel، 1967)، ويرتكز منهجه على أن لدينا أسبابا نوظفها فى صنع المواقف المختلفة. ويصبح علينا أن نحلل المواقف لاكتشاف ما يختفى وراء المظاهر. وقد نقوم بتحليل الحوار Conversational Analysis.

نعرف أننا نتصرف بطريقة مقصودة وفى أعماقنا معطيات نأخذها مسلما بها، وتكون أساسا لقواعد نتبعها فى التعامل اليومى. أبسط الأمثلة أن نقدم التحية لمن يقابلنا ونسأله عن أحواله، لكننا لا يهمنا بالضبط أن نعرف أحواله، إنما هو أدب التعامل. وعند الشراء من المحلات الكبرى لا نساوم على السعر، فهل هم حقا لا يقبلون المساومة؟ وقد يتحدث شخص إلى آخر بأدب بالغ ويقدم له هدية فى عيد ميلاده، بينما يضمر فى داخله مشاعر أخرى. ولتحليل المواقف واكتشاف الحقيقة، يمكن فى هذه الحالة كسر القواعد التى اعتدنا اتباعها.

مثال كسر القواعد ألا ترد التحية مثلا، أو لا نقدمها، وأن نساوم على السعر حين تكون القاعدة عدم المساومة، وهكذا. بهذا يتغير الموقف ونستطيع أن نغرى الطرف الآخر أو ندفعه لإظهار حقيقة نواياه، الكامنة وراء مسلكه الظاهرى. وسيتضح أن الحياة اليومية تعتمد على التسليم بأن الثقة متبادلة بيننا، ويعتبر التسليم بذلك قاعدة نمارسها ونعترف بها وننتجها ونعيد إنتاجها. والحقيقة التى سنعرفها بعد كسر القواعد، لا تقول لنا أن الحياة زيف كامل، وإنما تقول أن ثقافة المجتمع التى نسلم بها، وتجعلنا نصنع تلك المظاهر، لا يقصد بها الزيف بل العمل من أجل الحفاظ على بناء المجتمع وتماسكه.

يستخدم فى هذه المنهجية أيضا تحليل الحوار، ويبنى على أن التعامل اليومى يعتمد على اللغة، وأن التعامل اللغوى له أيضا قواعد مسلم بها. ومهمة المنهجية هنا ليست كسر القواعد بل اكتشافها. والأسلوب المتبع هو تسجيل المحادثات وتحليل بنائها الشكلى، بغض النظر عن مضمونها. المهم هو اكتشاف القواعد المتبعة فى تسلسل الحوار، وهى تختلف عن القواعد اللغوية. على سبيل المثال، تشتمل قواعد الحوار على تتابع جمل معينة، فحين نلقى تحية مثل السلام عليكم، يكون الرد وعليكم السلام. ولكن هناك من يحاول أن يكمل الرد فيقول وعليكم السلام ورحمة الله، وهناك أيضا من يضيف وبركاته.

7-5 الهوية والجسد والعواطف

هذه موضوعات لم تكن تدخل فى بحوث علم الاجتماع. كانت مشكلات الهوية موضع اهتمام السيكولوجيين، ومشكلات الجسد موضع اهتمام الطبيب، أما مشكلات العواطف فكانت موضع اهتمام الأطباء النفسيين. لكن الاجتماعى يتداخل مع الشخصى، ولهذا صارت تلك الموضوعات محل

دراسات اجتماعية مكثفة. وتهدف هذه الدراسات إلى اكتشاف قواعد اجتماعية لصنع الهوية والجسد وصنع العواطف أيضا.

7-5-1 سوسيولوجيا الهوية

الهوية بالنسبة لأى فرد هى أن يعرف من هو وماذا يكون. هذا يحمل فى طياته معنى التشابه مع الآخرين فى جوانب معينة والاختلاف عنهم فى جوانب أخرى. وبهذا المعنى تنطوى الهوية على التقسيم إلى فئات، تتفق خصائص وسمات جماعة من الأفراد فيشكلون فئة، تختلف عن فئة من أفراد آخرين يتفقون معا فى خصائص أو سمات أخرى. هنا أيضا جانب شخصى يرتبط بالفرد وما يدور بداخله ويشعر به هو ذاته، وجانب اجتماعى يتعلق بالمجتمع الأكبر الذى هو جزء منه، ومن هنا لا نتحدث فقط عن هوية فرد أو فئة بل قد نتحدث أيضا عن هوية أمة، كهوية الأمة المصرية أو العربية أو غيرها.

لا يمثل مفهوم الهوية مشكلة فى مجتمع متجانس تدور فيه الحياة على وتيرة واحدة ويعيش فى إطار ثقافة جامدة لا تتطور. وقد لا يوجد فى هذا العصر مجتمع من ذلك النمط، سوى الجماعات التى تكاد تنقرض، وتعيش فى أعداد قليلة وفى عزلة عن العصر. فى سياق التطور العالمى فى هذا العصر يحدث تفاعل بين المجتمعات البشرية لا يمكن تجنبه، ويؤدى إلى تغيرها كلها بدرجات وسرعات تختلف. ويظل يوجد فقط جمود نسبى بمعنى التغير البطئ، ولكن حتى فى هذه الحالة، تمثل الهوية مشكلة إذ يختلف معناها لدى فئات المجتمع المختلفة، تبعا لمدى تأثر كل فئة بالتطور الجارى.

يوجد فى مصر مثلا من يضعون الهوية المصرية موضع تساؤل، فهل هى مصرية أم عربية أم إسلامية. ولم تكن تلك التساؤلات مثارة قبل أن تبدأ حركة التحرر منذ مائتى عام. وقد أدت هذه الحركة إلى تغير المركز الاجتماعى للفئات الاجتماعية المختلفة، وظهور طبقات اجتماعية جديدة. ولكن التغير لم يستقر بعد، وقد تغيرت وجهته عدة مرات، ولذلك تتسائل القوى والتيارات المختلفة عن الهوية. ذلك لأن الهوية ترتبط باتجاه التغير المستقبلى، ويترتب على ذلك صعود التيارات القومية أو الإسلامية أو الاشتراكية، أو حتى عودة الحكم العسكرى. ويترتب فى كل حالة تغير اقتصادى قد يختلف، وقد تستفيد فئات وتتضرر فئات، وقد تتأكد حرية الفرد أو توضع قيود بصورة أو أخرى على تلك الحرية.

فى المجتمعات الأحدث وهى المجتمعات الصناعية المتقدمة، برز الفرد كشخص إنسانى متكامل متفرد يملك العقل ويسعى لإدراك ذاته وهويته. ولكن هذه المجتمعات الحديثة سريعة التغير ويواجه الفرد فيها كمية كبيرة من الاختيارات المحيرة. ووسط هذه المتاهة صار الفرد يتنقل من هوية إلى هوية، ويغير علاقاته ونمط حياته وحتى ديانته، بحثا عن ذاته. ويجد الأمور كلها نسبية بدون البوصلة الأخلاقية القديمة التى كانت تحدد للفرد هويته فى المجتمعات التقليدية. وبينما كان التقلب بهذه الصورة فى المجتمعات التقليدية يجعل الفرد شخصا لا يوثق به، نجده فى المجتمعات الحديثة سريعة التغير أمرا عاديا لا أحد يستنكره.

هكذا توجد أزمة هوية واسعة الانتشار فى كثير من المجتمعات، ولا يستثنى من ذلك المجتمعات الحديثة، وإن كان طابع الأزمة وأسبابها تختلف. ويزيد الأمر صعوبة فيما يسمى مجتمع ما بعد الحداثة، حيث يزداد التنوع ولا

يوجد مركز ثابت تبنى حوله قيم مرجعية. وبانتشار تكنولوجيا المعلومات والميديا الجديدة يتسع عالم الفرد ويتسع مجال اتصالاته بلا حدود. ويستطيع أى شخص أن يصنع لنفسه عالمه الخاص ويتخذ لنفسه أى هوية أيا كانت (ماكيونس وبلامر Macionis and Plummer : مرجع سابق).

7-5-2 سوسيولوجيا الجسد

يبدو الجسد تكوينا طبيعيا خالصا، قد يتدخل الطب فى علاج أمراضه لكنه يظل طبيعيا، بمعنى أنه ليس خلقا إنسانيا. لكن هذه صورة قديمة ظلت ثابتة منذ كانت الفلسفة تفرق بين العقل والمادة، وقد تغيرت هذه الصورة الآن، وصار الجسد مشروعا نغير شكله بالملابس ومواد التجميل، ونعدل فيه فنستبدل أعضاءه، ونضيف إليه تركيبات تكنولوجية. وصار استبدال الأعضاء الطبيعية مثلا تجارة كاملة، وصارت الأعضاء الصناعية والأجهزة المساعدة والدواء وعمليات التجميل صناعات عملاقة. وسواء فى المجتمعات الغنية أو الفقيرة صار الطب العلاجى والجراحى أنشطة اقتصادية ضخمة.

تزداد أهمية مشروع الجسد بازدياد الرفاهية، فالأغنياء أكثر من ينفقون على العلاج والتجميل والرياضة، وفى تجارة الأعضاء الطبيعية هم الطرف المشترى بينما الفقراء هم الطرف البائع. ويفتح اكتشاف الجينوم البشرى بابا لمزيد من التدخل فى مشروع الجسد، فمن المتوقع أن يتمكن العلم من إجراء تعديلات بعيدة المدى، فيمكن التحكم فى الطول ولون البشرة ولون العينين والشعر، فضلا عن التحكم فى جنس الجنين. وباختصار يصبح من الممكن إنجاب الأطفال وفقا لمواصفاتنا، وتصبح المراكز الطبية المتخصصة فى هذه العملية أشبه بمراكز التصميم.

لقد ظهر عام 1960 مصطلح سيبورج cyborg ليعبر عن مزايا النظم البشرية الآلية المعتمدة على التحكم الذاتى فى مركبات الفضاء[26]. وسرعان ما تطور استخدامه ليعبر عن شئ أكثر عمقا ويمثل جسرا بين ما سمى الفضاء الداخلى عن التدخل التكنولوجى فى الجسم البشرى، وقد تأسست لهذا الغرض مؤسسة لا تهدف إلى الربح مقرها أسبانيا (ويكيبيديا Wikipedia-g). والآن يعتبر كثير من البشر كائنات سيبورجية، ويدخل فى هذه الفئة كل من يتناول دواء مصنوعا أو يستخدم طرفا صناعيا أو جهازا لتنظيم النبض أو غيره. وبهذا تزداد نسبة السيبورجيين بين البشر بشكل عام، وتزداد نسبتهم فى المجتمعات المتقدمة بوجه خاص.

على وجه الإجمال، تثير سوسيولوجيا الجسد قضايا أنثوية وقضايا أخلاقية. ومن النوع الأول توجد فى بلادنا دعاوى الفصل بين الذكور والإناث والتى تحرم تلامس الأجساد على أساس دينى، ويوازى ذلك فى البلاد المتقدمة محاولات حديثة من جانب النساء للتخلص من تحكم المهنيين الذكور فى أجسادهن، ولكن على سبيل تأكيد الذات الأنثوية وتأكيد حقها فى التحكم فى جسدها. أما القضايا الأخلاقية فتمتد من قضايا منع الحمل وقضايا الإجهاض إلى قضايا بحوث الأجنة، وجراحات التحول الجنسى، وحق الفرد فى إنهاء حياته إنهاء لمعاناته، سواء بسبب كبر السن أو المرض.

7-5-3 سوسيولوجيا العواطف

[26] تم اشتقاق هذا المصطلح من كلمتى Cybernetics و Organism. والكلمة الأولى تعنى "نظم التحكم"، أما الثانية فتعنى "كائن" وبالتالى كان المصطلح يعنى الشئ الذى يجمع بين أجزاء عضوية وأجزاء للتحكم.

تبدو العواطف مسألة شخصية ونفسية لها خصوصيتها، ولكنها تلعب دورها فى كل موقف، فهى تتيح لنا التعبير عن مشاعرنا، وبالتالى هى التى تتيح كل أشكال التفاعل الاجتماعى. يمكن القول بأننا نقوم بإدارة عواطفنا فى المواقف المختلفة، وقد يتطلب ذلك أن ننتعامل مع مشاعر متناقضة بداخلنا ونتحكم فيما نظهره وما نخفيه منها. وهذا واضح تماما فى عمليات الجماعات، فلا يرتبط الفرد بجماعة دون أن يكون له مشاعر خاصة نحوها ويتوقف تماسك الجماعة على مدى التضامن وانخفاض التوتر بين أعضائها وهى عمليات تقودها العواطف لا الاقتناع العقلى وحده (أنظر: روبرت براون Brown، 1987).

تستخدم سوسيولوجيا العواطف نظريات علم الاجتماع، لدراسة ما يوجد من أنماط اجتماعية فى عمليات إدارة العواطف. وقد أدخلت آرلى هوكتشايلد (Arlie Hochschild، 1983)، هذا الموضوع فى علم الاجتماع الجزئى. وكان من أوائل الدراسات التى أجرتها دراسة عن تدريب مضيفات الطيران، وفيها وجدت أن من أهم ما يجب عليهن عمله أن يبدين الابتسامة دائما. لم تعد الابتسامة إذن تعبيرا صادقا عن مشاعر شخصية، بل صارت شيئا مصنوعا كجزء من واجبات العمل. ونستطيع أن نلاحظ هذا فى عمل جميع المضيفات لا فى الطيران فقط بل فى أى أماكن أخرى كالمقاهى والمطاعم، وهذا نموذج لإدارة العواطف.

إدارة العواطف إذن عملية صارت لازمة، وستصبح ممكنة إذا عرفنا الأنماط التى اعتاد الناس العمل بمقتضاها فى علاقاتهم اليومية. والأفراد يقيمون العلاقات مع غيرهم ولدى كل فرد شعور ذاتى بقدر من المكانة والقوة. وتتحرك عواطف الحب أو الكراهية أو غيرها حسبما يترتب على وقائع التعامل

من احترام ذلك القدر من المكانة والقوة والحفاظ عليه أو المساس بها. ولا يحدث هذا فقط فى علاقات الأفراد بل يحدث أيضا حتى فى علاقات المجتمعات، وإذا لم تنجح إدارة العواطف فى تهدئة المشاعر حين تنشأ مشاعر الكراهية أو الغضب، تترتب على ذلك توترات قد تؤدى إلى العنف.

لهذا يهتم الباحثون (راندال كولنز Collins، 2004) بالطاقة العاطفية، وهى طاقة ضخمة تستثير أقصى درجات الحماس، وقد تسبب أقصى درجات اليأس. وهذا مما تهتم به دراسة حركات الاحتجاج والحركات الاجتماعية، ففى هذا السياق تستخدم الطاقة العاطفية للحشد والتعبئة. وقد كان باستطاعة دافيد هايز (Heise، 2007) أن يصمم برنامجا لتحليل عمليات ضبط العواطف والتنبؤ ها دقيقة بدقيقة، وذلك بتحليل الكلمات وتعبيرات الوجه.

هكذا يصبح على السوسيولوجيين أن يكتشفوا القواعد التى تحكم المواقف المختلفة، وكيف يوائم الفرد مشاعره لتناسب الموقف. وحول هذا الأمر صكت هوكتشايلد مصطلح "احتراف العواطف" emotional labour وهو حرفة إدارة المشاعر لتكوين صورة للوجه والجسد يمكن الظهور بها أمام الناس. وفى سياق العلاقات الحميمة، صاغت دنكومب ومارسدن (Duncombe and Marsden، 1993)، مصطلح "صنعة العواطف" emotional work وذلك فى دراسة عن الحب والعلاقات الجنسية بين الأزواج.

كانت مشكلة تلك الدراسة هى الكشف عن أسلوب التعبير عن العواطف أثناء العلاقة الجنسية. وصنعة العواطف هنا تنقل المشاعر وتستثير التفاعل، وقد كان من نتائج البحث أن هناك استياء بين الزوجات بسبب عدم رغبة الأزواج فى ممارسة تلك الصنعة، ولهذا السبب يتولد لدى الزوجة شعور بالهجران الجسدى. وبنبرة تشاؤم تستنتج الباحثتان أن صعوبة تعبير الرجال

عن عواطفهم الحميمة فى هذا الموقف، ستكون سببا رئيسيا فى النزاعات الخاصة وزيادة الطلاق وتفكك الأسرة. وهذا مثال واحد لما يمكن أن تؤديه سوسيولوجيا العواطف من خدمة للمجتمع.

المراجع

1- أحمد القصير (2012)، منهجية علم الاجتماع بين الماركسية والوظيفية والبنيوية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

2- أحمد صادق سعد (ب. ت)، فى ضوء النمط الآسيوى للإنتاج: نشأة التكوين المصرى وتطوره. دار الحداثة، بيروت.

3- أحمد يوسف (بدون تاريخ)، عطيات الأبنودى، وصف مصر من الواقع إلى الحلم. صندوق التنمية الثنقافية، وزارة الثقافة، القاهرة.

4- أوسيبوف، ف (1990)، أصول علم الاجتماع. ترجمة سليم توما. دار التقدم، موسكو.

5- جيمس هنرى برستيد (1999)، فجر الضمير. ترجمة سليم حسن. مكتبة الأسرة.

6- دار التقدم (1988)، علوم الاجتماع، الفصل الثانى. مترجم. دار التقدم،

موسكو (لم تذكر أسماء المؤلفين أو المترجمين).
7- روبرت براون (1987)، عمليات الجماعات: التفاعلات داخل الجماعة وفيما بين الجماعات. ترجمة سلوى عبد الباقى، مراجعة حمدى الحناوى (2012)، توزيع مركز الإسكندرية للكتاب.
8- سيد عويس (2008) الأعمال الكاملة. دار المحروسة، القاهرة.
9- صلاح مصطفى الفوال (2002)، المدخل إلى علم الاجتماع الإسلامى، دار غريب، القاهرة.
10- عبد المنعم الحفنى (ب. ت)، الموسوعة الفلسفية، دار ابن زيدون، بيروت، ومكتبة مدبولى، القاهرة.
11- عطيات الأبنودى (1997) أيام الديمقراطية، قاسم برس، القاهرة.
12- على ليلة (1991)، النظرية الاجتماعية المعاصرة: دراسة لعلاقة الإنسان بالمجتمع- الأنساق الكلاسيكية. دار المعارف، القاهرة.
13- ف. ج. افاناسييف (1975)، أصول الفلسفة الماركسية. ترجمة حمدى عبد الجواد. دار الثقافة الجديدة، القاهرة.
14- الكتاب المبين، تفسير الأية 13 من سورة الطلاق "الله الذى خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن" .. إلى آخر الآية. تفسيرات ابن كثير والجلالين، سهل للبرمجيات، حنين للكمبيوتر، القاهرة.
15- مركز معلومات الثمانية الكبار
16- محمد غلوم – مترجم – (1999)، النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس، عالم المعرفة، رقم 244، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب بالكويت.
17- محمود إسماعيل (2000)، هل انتهت أسطورة ابن خلدون؟، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة.

18- مراد وهبة (1999)، ملاك الحقيقة المطلقة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

19- مصطفى الخشاب (**1965**)، علم الاجتماع ومدارسه، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.

20- مجموعة العمل الدولية من أجل الشعوب الأصلية مات مستخلصة (يناير 2013)، من تقارير مختلفة، من:

21- مقدمة ابن خلدون2002، موقع الفلسفة الإسلامية،
www.muslimphlosophy.com/ik/muqadima.doc

22- ميرسيا إلياد (1987/1986)، تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، الجزء الأول، الطبعة الأولى. ترجمة عبد الهادى عباس. دار دمشق، سوريا.

23- يمنى طريف الخولى (2000)، فلسفة العلم فى القرن العشرين: الأصول – الحصاد – الآفاق المستقبلية. عالم المعرفة – رقم 264، المجلس الوطنى لثقافة والفنون والآداب – الكويت.

1. Adorno, Theodore (1991), The Culture Industry. London, routledge.
2. Adorno, Theodore and Max Horkheimer (1972), Dialectic of Enlightenment. New York, Seabury Press.
3. Bateson, Gregory and Margaret Mead (1942), Balinese Character. New York, New York Academy of Science.
4. Bell, Daniel. The Coming of Post-Industrial Society. New York: Harper Colophon Books, 1974.
5. Berger, Peter L. (1963), Invitation to Sociology, New York, Anchor Books.
6. Bent Flyvbjerg, 2006, "Five Misunderstandings About Case Study Research." *Qualitative Inquiry*, vol. 12, no. 2, : 219-245
7. Beniger, James R. (1986). The Control Revolution:

Technological and Economic Origins of the Information Society. Cambridge, Mass.: Harvard University Press.
8. Berger, Peter and Thomas Luckman (1967), The Social Construction of Reality: A Treatise in the Sociology of Knowledge. New York, Anchor Books.
9. Bicanice, Rudolf (1964), Social Pre-conditions and Effects of Moving Over the Threshold of Economic Development, in International Social Science Journal, UNESCO.
10. Brown, Ropert (1988), Group Processes: Dynamics Within and between Groups. Oxford, Basic Blackwell.
11. Castells, Manuel (1996), The Information Age: Economy, Society and Culture. Oxford, Blackwell.
12. Chinese Government (2013) www.china.org.cn
13. Cohen, Stanely (2003, 3rd ed.), Folk Devils and Moral Panics: The Creation of the Mods and the Rockers. London, Routledge.
14. Collins, Randall. (2004), Interaction Ritual Chains. Princeton University Press
15. Cooley, C. Horton (1964, 1902), Human Nature and the Social Order. New York, Schocken Books.
16. Davis, Kingsley (1940), Extreme Social Isolation of a Child. *American Journal of Sociology*, Vol. 45, No. 4: 554-565.
17. Denzin, N. K., & Lincoln, Y. S. (2000). Handbook of qualitative research *(2nd ed.)*. Thousand Oaks, CA: Sage Publications.
18. Drucker, Peter F. (1977), The Innovative Organization, In Dialogue, 10(1).
19. Duncombe, Jean and Dennis Marsden (1993), Love and Intimacy: the Gender Division of Emotion and "Emotion Work". Sociology, 27 (2): 221-241.
20. Durkheim, Emile (1974), Sociology and Philosophy, translated by D. F. Pocock. London, Routledge.
21. Eichler, Margrit (1998), Making Sociology More Inclusive. *Current Sociology*, vol. 46, No.2: 5 – 28.
22. Erikson, Eric (1980), Identity and The Life Cycle. New York, W. W. Norton.

23. Etzioni, Amitai (1975), A Comparative Analysis of Complex Organizations: On Power, Involvement and Their Correlates. New York, Free Press.
24. European Commission (2-12), Enterprise and Industry. http://ec.europa.eu/enterprise/policies/innovation/index_en.htm
25. European Parliament (2007), Written Declaration. http://hyfleetcute.com/data/MEP%20Green%20H2%20Declaration.pdf
26. Freud, Sigmund (1949), "The Ego and the Id". The Hogarth Press Ltd. London, 1949
27. G-8, Official Site: http://www.g8.utoronto.ca
28. G-20, Official Site: http://www.g20.org/about_what_is_g20.aspx
29. Garfinkel, Harold (1967), Studies in Ethnomethodolgy. Cambridge, Polity Press.
30. Giddens, Anthony (1999), Runaway World: How Globalization is Reshaping our Lives. London: Profile Books.
31. Goffman, Erving (1982) The Interaction Order. American Sociological Review, 48: 1-17.
32. Gouldner, Alvin (1970), The Coming Crisis of Western Sociology. New York, Avon Books.
33. Gramsci, Antonio (1971), Selection for the Prison Notebooks. London, New Left Books.
34. Halacy, D. S. (1965), Cyborg: Evolution of the Superman New York: Harper and Row Publishers.
35. Harris, J. R. (1995). Where is the child's environment? A group socialization theory of development. *Psychological Review, 102*(3), pp. 458-489.
36. Heise, David. (2007), Expressive Order: Confirming Sentiments in Social Actions. New York: Springer
37. Hochschild, Arlie (1983), The Managed Heart. Berkeley, CA. University of California press.
38. Hodkinson, Paul, (2003), Goth: Identity, Style and Subculture. Oxford, Berg.
39. IWIGIA (International Working Group for Indigenous Affairs). Reports from different countries. http://www.iwgia.org/publications/searchpubs?publication_id=577
40. Jenkins, Richard (1992), Pierre Bourdieu. London, Routledge.

41. Kendler Kenneth S. and Jessica Baker JH (2007). Genetic influences on measures of the environment: a systematic review. *Psychological Medicine* **37** (5): 615–626.
42. Landes, David (1998), The Wealth and Poverty of Nations: Why Are Some So Rich And Some So Poor, W.W. Norton and Company.
43. Lash, S. (1990), The Sociology of Postmodernism. London, Routledge.
44. Lenski, Gerhard; Patrick Nolan and Jean Lenski (2004, 9th ed.), Human Societies: An Introduction to Macrosociology. New York, McGraw-Hill.
45. **Lewis, M. Paul (ed.), 2009. Ethnologue: Languages of the World, Sixteenth edition. Dallas, Tex.: SIL International. Online version:** http://www.ethnologue.com/**.**
46. Lewis, Oscar (1959), Five Families. New York, Basic Books.
47. Library of Congress: A Country Study, Soviet Union (Former). On-Line Call Number **DK17 .S6396 1991**
48. Maccoby, E. E. & Martin, J. A. (1983). Socialization in the context of the family: Parent-child interaction. In P. H. Mussen (Series Ed.) & E. M. Hetherington (Vol. Ed.), Handbook of child psychology: Vol. 4. Socialization, personality, and social development (4th ed., pp. 1-101). New York: Wiley.
49. Macionis, John J. and Plummer, Ken (2008 4th ed.) Sociology: A Global Introduction, Pearson Education Limited, England.
50. Mark, Little H. (2006), America's Uncivil War: The Sixties Era from Elvis to the Fall of Richard Nixon. Oxford University Press.
51. McGue, M., Bouchard, T. J. Jr., Iacono, W. G. & Lykken, D. T. (1993). Behavioral Genetics of Cognitive Ability: A Life-span Perspective. In R. Plomin & G. E. McClearn (Eds.), Nature, Nurture, and Psychology (pp. 59-76). Washington, DC: American Psychological Association.
52. Mead, George Herbert (1962), Mind, Self and Society from a Standpoint of a Social Behaviorist. Ed. By Charles W. Morris. Chicago, University of Chicago Press.
53. Merton, Robert (1968), Social Theory and Social Structure, New York, Free Press.
54. Moore, Thomas (2013), London to Sydney Spaceflight Edges

Closer.
http://uk.news.yahoo.com/london-sydney-spaceflight-edges-closer-162046726.html
55. Nayak, Anoop (2003), Race, Place and Globalization: Youth Cultures in a changing World. Oxford, Berg.
56. Ogburn, William (1964), On Culture and Social Change. Chicago University Press, Chicago.
57. Ohtsu, M. and Makoto Ohtsu, (1999). "Japanese National Values and Confucianism". *Japanese Economy* **27** (2): 45–59.
58. Plomin, R. (1990). Nature and nurture: An introduction to human behavioral genetics. Pacific Grove, CA: Brooks/Cole.
59. Plomin, R. & Daniels, D. (1987). Why are children in the same family so different from one another? *Behavioral and Brain Sciences,* 10: 1-60.
60. Ridley, Matt. (2003) Nature Via Nurture: Genes, Experience, and What Makes us Human. Harper Collins.
61. Rifkin, Jeremy (2013), The Third Industrial Revolution: How Lateral Power Is Transforming Energy, the Economy, and the World. Palgrave, Macmillan.
62. Sandywell, Barry (1995) Forget Baudrillard, in "*Theory, Culture and Society*", 1995, No. 12.
63. Sorokin, Pitrim and C. Berger (1938), Time Budgets of Human Behaviour, Cambridge,
64. Stein, Struart (2003), Sociology on the Web: A Student Guide. Harlow, Pearson.
65. Stones, Rob (1996), Sociological Reasoning: Toward a Past-Modern Society. London: Macmillan.
66. Sumner, W. Graham (1959), Folkways. New York, Dover.
67. Thomas, W. I. and Florian Znaniecki (1958,1918), The Polish Peasant in Europe and America. New York, Dover Publications.
68. Toennies, Ferdinand (1963-1887), Communities and Societies, Harper & Raw, New York.
69. Turner, Fred (2006), From Counterculture to Cyberculture: Stewart Brand, the Whole Earth Network, and the Rise of Digital Utopianism. University Of Chicago Press.
70. UNDATA (2011), Human Development Indices: A Statistical Update. United Nations Development Program.

http://data.un.org/DocumentData.aspx?id=268
71. UNDATA (2013), Population by literacy, age, sex and urban/rural residence. http://data.un.org/Data.aspx?q=literacy+&d=POP&f=tableCode%3a31
72. Weber, Max (2003,1905), The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism. Translated by Talcott Parsons (2003). New York, Dover Publications, Inc.
73. Max Weber (1978, 1922), Economy and Society: An Outline of Interpretive Sociology, edited by Guenther Roth and Claus Wittich. University of California Press, Berkeley, 1978.
74. van Dijk, Jan (2005a). *The Network Society, Social Aspects of New Media, Second Edition*. London, Thousand Oaks, New Delhi: Sage.
75. van Dijk, Jan (2005b). The Deepening Divide, Inequality in the Information Society. Thousand Oaks, London, New Delhi: Sage, 240 p.
76. Wikipedia, a: The Free Encyclopedia, Louis Althusser. Site Address; http://en.wikipedia.org/wiki/Louis_Althusser
77. Wikipedia, b: The Free Encyclopedia, Structural Marxism. Site Address; http://en.wikipedia.org/wiki/Structural_Marxism
78. Wikipedia, c: The Free Encyclopedia, The third Industrial Revolution, address; http://en.wikipedia.org/wiki/The_Third_Industrial_Revolution
79. Wikipedia, d: The Free Encyclopedia, Otzi, address: http://en.wikipedia.org/wiki/%C3%96otzi_the_Iceman
80. Wikipedia, e: The Free Encyclopedia, Vietnam War, address: http://en.wikipedia.org/wiki/Vietnam_War#Casualties
81. Wikipedia, f: The Free Encyclopedia, Hydrogen Vehicle, address: http://en.wikipedia.org/wiki/Hydrogen_vehicle
82. Wikipedia, g: The Free Encyclopedia, Cyborg Foundation, address:
83. http://en.wikipedia.org/wiki/Cyborg_Foundation
84. Wilson, D. R. (2004), Researching Sociology on the Internet. Thomson, Wadsworth.

85. Wolff, Kurt, ed. (1950), The Sociology of George Simmel. New York, Free Press.
86. World Bank (2012), World Development Indicators. http://data.worldbank.org/data-catalog/world-development-indicators

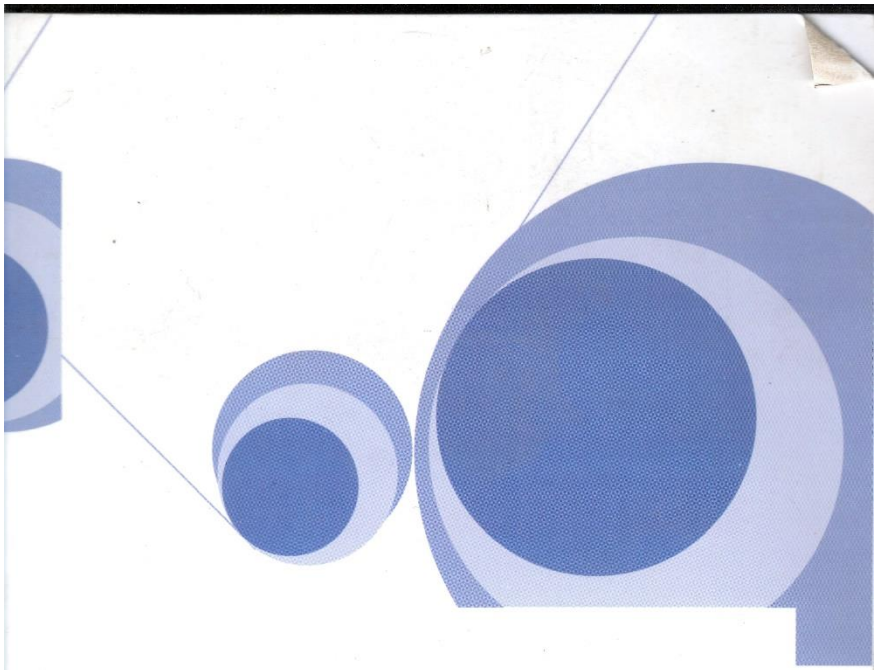

يعرض هذا الكتاب علم الاجتماع بأكبر قدر ممكن من البساطة، مع عرض مدى واسعا من الموضوعات، التى يدرسها، ونأمل أن يستثير هذا لدى القارئ فضولا يدفعه إلى التأمل، واكتشاف ما يحتاج إلى البحث فى مجتمعنا. وقد أشرنا بسرعة إلى ما يسمى الاتجاه الأنثوى فى منحنى لا يعبر عن محاولة فهم قضايا متعلقة بالنساء، بل لبيان منطق هذا الاتجاه وهو يرى المجتمع من وجهة نظر أنثوية. وفى النهاية تناولنا علم الاجتماع الجزئى، بما فى ذلك من موضوعات لم يتعرض لها الباحثون الاجتماعيون إلا حديثا. وشمل ذلك بالتحديد الهوية وسوسولوجيا الجسد وسوسيولوجيا العواطف.